obeikandl.com

حديقة برقوق جدتى

obeikandl.com

حديقة برقوق جدتي

مُظَفَّر إِزجو

ترجمة

د / صبرى توفيق همام

مراجعة

أ.د / الصفصافى أحمد القطورى

سفير

obeikandl.com

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠٠٩م
حقوق الطبع محفوظة
رقم الإيداع : ٢٠١٢١ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى : 978- 977-361-704-2
سفير
١٦ ش محمد عز العرب من ش قصر العينى - ص . ب : ٤٢٥ الدقى- القاهرة
تليفون : ٢٥٣٢٩٩٠٢-٢٠٢+ فاكس : ٢٥٣٢٩٥٠٥-٢٠٢+
E-Mail: info@safeer.com - Web Site: www.safeer.com.eg
المعرض الدائم
٤٨ ش أحمد عرابى - المهندسين
تليفون : ٣٣٠٤٩٤٠٣-٢٠٢+

تُرجم هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة التركية

obeikandl.com

المؤلف :

مظفر إزجو

ولد فى أَضَنَة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٣٣م، وقد عاش طفولة فقيرة، ومن ثم عمل بأعمال عديدة مثل غسل الأوانى، ونادلًا، وبائع مياه غازية فى دور السينما، أو دارِس. وقد أنهى تعليمه الأول فى دِيار بَكِر، وعمل بالتعليم الأولى سنوات طوال، ثم أصبح مدرسًا للغة التركية بالتعليم الإعدادى، وبعد أن تقاعد انتقل وعاش فى إزمير. وكان أزجو واحدًا من كتاب أدبنا التعليمى، كتب مَا يَرْبو على (٦٥) كتابًا للطفل، وأصدر (١٠٩) مؤلفات فى دار نشر المَعْرِفة. وفى عام ١٩٩٧م فاز بالجائزة الثانية عن كتب الطفل الناجحة التى أعدَّها بإزمير.

obeikandl.com

المترجم :

- د/ صبري توفيق همام .
- تخرج في كلية الآداب سوهاج ١٩٩٢م .
- حصل على الماجستير في الأدب التركي .
- حصل على الدكتوراه في الأدب التركي ٢٠٠٢م .
- له العديد من المقالات والأبحاث بالعربية والتركية .

المراجع :

- أ . د/ الصفصافي أحمد القطوري .
- أستاذ اللغة والآداب التركية في الجامعات المصرية والعربية .
- له العديد من الأبحاث والمؤلفات والترجمات التي تدور حول الثقافة والحضارة العثمانية والتركية الحديثة والمعاصرة .
- حائز على جائزة الترجمة حَوْل الترجمات الإبداعية في الأدب الإسلامى .
- نقل العديد من الأعمال الإبداعية التركية المعاصرة إلى اللغة العربية .

obeikandl.com

حديقة برقوق جدتي

تحكي لنا جدتي العزيزة عن طُفولتها، لدرجة أنها تَهْتم بالبداية والتَّسَلْسل؛ فقد نشأت جدتي في أحد المراكز الصغيرة، ولكن ذلك المركز الصغير كان به العَديدُ من الحَدائق، وقد عاشت جدتي وسط حَديقة هائلة في هذا المَرْكز، وكانت منازلهم من طابقَين، ذات لَوْن أبيض، وكان المَنْزل جميلاً إلى حدٍّ ما، فكان به رِدْهَة ضَخْمة، في جَوانبها الأربعة دَرابْزين من شجر مُجَوَّف، فكانوا ينامون في تلك الرِّدْهة في ليالي الصيف، وتحكي لنا جدتي أيضًا عن ناموسِيَّتها، وهي عِبارة عن كِيس مَصْنوع من القُماش الرقيق بحَجم السرير، ولكنه مُرْتَفع، وقد رُبط من جوانبه الأربعة بالخُيوط، وكانت جدتي تنام داخله، ولأن السرير أصْبح مَكْسُوًا، يَعْني مُغَطى بالقماش فلا تدخل حشرة ولا ذبابة.

آه . . كم هو جَميل النَّوم في تلك الرِّدْهة . . حيث إنهم يستعدون للنوم من أول المساء، فمجرد أن يأكلوا طعامهم يصبحون كمن سيغمض عَيْنَيه، ولكن جدتى كانت لا تنام على الفور، فقد كانت تتتبع ببصرها مجرة (طريق التبانة) بشكلها البديع، ولكم كانت تَسْتَمع إلى صوْت الحشرات الليلية،

وحَفيف الأشجار التي تصدر صوتًا قريبًا إلى الخَشْخَشَة. وكلها أصوات تثير انتباه أى إنسان، كما كانت تَسْتَمع لصوت نُباح الكلاب من بعيد، ثم تَنام.

ولم يكن هناك هواء مملوء بالأدْخِنة أو الضباب، ولا صَوت عربة ولا صَفارة ولا باخِرَة ولا بائع مُتَجول يَطوف مُناديًا. فلو رغب الإنسان في النوم، يُمْكِنه النوم حتى الظهيرة، ولكنهم كانوا ينهضون مبكرًا في ذلك المركز؛ لأن لديهم أعْمالاً كثيرة. فالإنسان عندما ينام في هَواء نقي مثل هذا يَنْهض نشيطًا دون أن يكون لديه رغبة فى النوم ثانية . . هذا من جانب، ومن جانب آخر فهو مضطر لأن يَنْهض على صوت صِياح الدِّيك.

- فالدُّيوك تَصيح:

افتح غطاء عُشَّة الدجاج!

- والأبقار كانت تصيح:

احْلِبونا!

- والقطة كانت تموء:

أنا جائعة!

- والكلب كان ينبح:

انتظرتكم حتى الصباح، فأين طعامى؟!

وفي لمح البصر، تَتَشابك أصوات القطَّة والكَلْب والبَقَرة والدِّيك في الفناء، وفجأة يَنْضم حِمار جَدِّي الكبير إلى هؤلاء ناهقًا قائلاً:

– لا تنسونى في الإسْطبل، الرحمة؛ ظمآن.. ظمآن...

كانت جَدتي تَسقي الحِمار، ووالدتها تَحْلِبُ البَقرة.. وكانت الدجاجات تَجْري مُنَقْنِقة إلى حاضن البيض كي تَبيض.

وبينما تُعِد جدتي الإفطار لنا، كانت تحكى لنا هذا، تقول: نَفْسِى تُريد اللبن، فأنا أشربُ اللبنَ.

وبعد أن تقول هذا تقرِّب أنفها من اللبن الذي أَخَذْناه من بائع اللبن، وتقول:

– آى واه.. هل هذا أيضًا لبن؟ يا إلهي، لا طَعْم له ولا لَذَّة، ربما يكون ماءً أبيض، كُنْتم سَتَشْرَبون لبن بقرتنا التي...

– آه يا جدتي العزيزة، كيف سَنَشْرب لبن بَقَرتكم، فكم عامًا مَضَى منذ خروجك من المَرْكز؟ وكم عامًا مَضَى على تلك الحَديقة منذ تحطُّم فنائها؟

لكن جدتي تواصل السَّرد بنشوة، وهذه المرة تأخذ بَيْضة في يدها، وتقول:

– انظر إلى تلك، إنها لا تُشْبِه حتى البَيْضة.

شارَكْتُها أنا الكلام فقلت:

– إذن، ماذا تشبه أيتها الجَدَّة؟

– أَيْوَاه . . هل البَيْضة تكون مُسْتَدِيرة هكذا؟

– كيف تكون إذن؟

– مُدَبَّبة . . تكون هكذا مُدَبَّبة . . . هكذا مُدَبَّبة.

ضحكت أُختي الكُبْرى في صمت، وقالت أمي:

– الرَّحمة أيتها الأم، اتْرُكي الماضي، فقد انتهى ذلك، وانظري إلى الحاضر.

– انْظُرُى أيضًا يا ابنتي إلى شكلها، هل يُتوقع أن يأتي طعم البَيْض من بيضة كهذه؛ فالأطفال يظنون أن ما يأكلونه يكون بيضًا أيضًا.

وتواصل السيدة المُسِنَّة كلامها عن طعم البيضة وعَن عَمَل عِجَّة من البيض وعن كيفية سلق البيضة، أو وضع البيضة فى السَّمن أو الزبد، إلَّا أنه لن يحدث شبع من هذه البيضة الغريبة

obeikandl.com

إلا إذا وضعت فى الزبد البلدى . . لكن لا يمكن الشبع منها أبدًا . . لوب . . هكذا . . توضع البيضة فى الزبد . . لكن لا يمكن الشبع منها أبدًا ! !

– ما هذا اللبن والبيض ، لو رأينا الموجود منه فى الحديقة ؟

– آه هل الفاصوليا طازجة ، أم هى كاللحم ؟

– هل هذه حقًا لوبيا أم ساق ذلك النبات المتسلق المتطفل ؟

– هل هذا خِيار يا مَتِين أم كوسة غير جيدة ؟

لا زلتُ مندهشة ، فالطماطم أصابها المرض منذ زمن ، فَذَبلت واصفر لونها هكذا !

كانت تلك كلمات جدَّتي التى ترددها دائمًا . . وعندما يدخل بائع متجول الشارع ، تنزل جدتي ، وصينيتها في يدها ، وتقول : سأشتري فاصوليا وطماطمًا وفلفلًا . وبالفعل تشتري هذا ، وتترك الآخر ، تَنْظر وتُكَسِّر وتَشُم وتُقَلِّب ، ولا تستحسن شيئًا قط . وتَبْحث عن الخضراوات والفواكه الطازجة مهما كلفها ذلك ، قائلة : يُشبه الفلفل ، ولكنه ليس فلفلًا ، ليس فلفلًا للحشو ، مُجَعَّدة مثل جبهة جد في سن السبعين ، هل هذا فول أم ساق ذرة شامى ؟ الذُّرة الشامى اللبن ، فالبائع يَخْدع من ؟ فهذا يُشبه الجزر الذى بهت لَوْنه ، وتلك الساق تشبه الجزرة .

وعندما يقول البائع :

– إذا كان كذلك فلا تشترى يا خالتى حكمت هانم . .

تقول جدتي فى هذه الحالة :

– كيف لا أشترى . . ! وهل يبقى الأطفال بدون خضراوات وفواكه طازجة؟

تقولُ وَتتحدثُ وهى تملأ صينيتها ، تَصْعد ، وبينما هى تَفْصِلها عن بعضها وتغسلها تظل تتحدث وتتذمر وتقول :

– آه . . آه . . لو يبيعها طازجة . . يووه . . . سيجعلها تفسد ثم يبيعها بعد ذلك ، انظر إلى ذلك الخيار ، رَخْو مثل البيضة المسلوقة ، وانظر إلى تلك الفاصوليا ملتوية مثل العُكَّاز ، والفلفل أيضًا بال . . . وبعد أن تذمرت جدتي إلى هذا الحد ، قَررت ذات يوم قائِلة :

– أيها الأطفال سوف أزْرَع حَدِيقة العِمارة هذا الرَّبِيع !

أجابها والدي معترضًا :

– يا أماه ، حديقة العمارة ليست ملكًا لنا ، فهناك ثماني شُقَق لها حق في تلك الحديقة .

أجابت جدتي قائلة :

– آاه هذه ليست حديقة إنها مذبلة ، لو تم ذلك فسوف

تتخلصون من المَزْبَلة، وسواء زَرعتُ كل الحديقة أم قليلًا منها، فسيكون ما سأزرعه في الجانب الخارجي لشقتنا، يعني في نصفها.

– ليس لدينا بواب للعمارة.

– نُنَظف معًا كل السلالم، فكل شخص ينظف سلالم طابِقه، يكنسها وَيغْسِلها.

يَصيح العم «سورايا» المتقاعد وهو مدير العمارة طوال الوقت، ثم يجمع العم «سورايا» النقود أول الشهر للمصروفات.

جدتي: سأقول لـ «سورايا بك»، وسوف يرضى. فتصدت لها أمي هذه المرة، وقالت: أماه، أنا أعرف أنك اشتقت لقريتك، واشتقت لطفولتك، لهذا السبب تُريدين زَرْع الخُضار في حَديقة العِمارة، ولكنك في ذاك الوقت كنت شابة، والآن أنت عجوز، والحديقة تحتاج إلى خدمة ورعاية.

نَهَضت جَدتي من المكان الذي كانت جالِسة فيه . . كنا ننظر إليها فى حَيْرَة . . ماذا ستفعل؟

– رفعت ذراعيها في الهواء مثل البهلوانات، وَوَصلت إلى المكان واقفة على أطراف قدميها، وقالت:

– قوية . . أنا قوية، ولا أريد مُسَاعدة، يكفي أن تَجِدي لي

obeikandl.com

oberkanol.com

قدومًا، وحتى لا أريدُ منجلاً . . هزت والدتي رأسها في كلا الجانبين وقالت :

– أُماه، سَتَجدين شيئًا كهذا في كل ربيع، فلو جلست في شرفتك هكذا . . وشاهدت المارة . . ألا يكوِّن هذا أَفْضَل؟

– آه . . سئمت يا بنيتى من النظر إلى الجَماجِم، أريد أن أفتح ذراعي قليلاً، ويرتاح داخلى . . وأفرح، وأن يأكل أولئك الأطفال طماطمًا طازَجة، ولوبْيا وكوسة وباذنجانًا وفلفلاً طازَجًا أيضًا .

قال والدي : أوه، أوه ما شاء الله، ستَفْتَحين أيتها الأم دكان خُضَري؟ وكيفما سيكون لنأخذ الإذن من «سورايا بك»، هكذا تكون مناضد البيع داخل كوخ، وإلى الجانب من حديقة العمارة، وتضعون لافتة كُتب عليها : «الخُضري حِكْمت هانم»، زراعة في هذا الجانب، وبَيْع في الجانب الآخر .

قالت جدتي :

– ليس هنا قط، بل سأزرع من أجل أَحفادي، وسأُعطي يا عزيزي حق النظر لكل الجيران بلا شك .

تركت والدي ووالدتي، وبدأت تُوضح لي :

obeikandl.com

– آه . . متين، عليَّ أن أزرع أنا طماطمًا تكدس الأرض هكذا . . بطرف جذرها، والآن، انظر: مُدَّ يدك، مد . . لا . . لا . . إصبعك، أنا أغرس شتلة الطماطم بأصبعي، كانت جدتي تقوم بذلك حيث تَغْرس وتوضح:

– ازرع طماطمًا . . هيا ازرع.

– غرست هذه المرة شتلة الفلفل بالإبهام، هذه الشتلة سوف تعطى ثمارًا أكثر، وسوف تصب علينا الخير صبًا، . . . وهكذا لو أصبح لدينا عشر أشجار فلفل، فلن نشتري فلفلاً هذا الصيف من الخارج، فقد كنا نَأْكله غير طازج.

– أيتها الجدَّة، كيف يَصبُّ المكان؟ هل يفرغ المكان هكذا أم مثل الماء؟

– لا يا عزيزي، يَصبُّ يعني الزرع، يعني يُعطي خيارًا أكثر، فعندما نزرع خمسة جذور نقطفها واحدة واحدة . . اثنتين اثنتين . . كل يوم من كل جذر. تظل جدتى . . تحكى . . وتحكى . .

وعندما يهز أبي وأمي رأسيهما، تفسر جدتي كلامها:

– آى كيف لي أن أقول، ينبغي أن تربحوا، فهل لو جلست

إلى جوار شرفتي أُراقب من يَمْضي . . . فهل ذلك يُجدى . . نحن نحتاج نعناعًا لليوريك . . وعندما لا يجيبها أحد كانت تنظر لعيني وتقول :

– قل يا متين ، بكم كانت الطماطم العام الماضي؟ وبكم تكون هذا العام؟

– نسيت أيتها الجدَّة .

– لم تَنْسَ جدتي ، وكانت تقول :

كان هذا فى العام الماضي ، وسيكون ذلك فى هذا العام . . جنيه .

ولننظر يا متين بكم كان كيلو الكوسة العام الماضي ، وبكم يكون هذا العام؟

– لا أعرف يا جَدَّتي العزيزة .

كانت جدتي تعرف ، فكانت تُعدِّد أَسْماء الخضراوات كالخُضَري ، وتقول أسعارها ، ثم تقول :

– هل رأيت يا فضلي ، هل رأيت يانبهات ؟ إننى أسعى كي لا يخرج المال من جَيْبكم للخضار .

– كان أبي وأمي لا يقولان «يمكن» .

obeikandl.com

جدتي تنتظر . . تنتظر ، ثم تقول :

– الآن تعتقدون أنني أريد منكم تلك الشتلات ، وأن ما سأقوله إني أريد تلك الشتلة ، أليس كذلك؟ لا لا . . لا أريد شيئًا من هذا قط ، سَأذهب بنَفْسي وأشتري كل ما أُريده ، ولو تريد يا متين أن تأتي بنفسك ، فلتأتِ معي ، فأنا لا أريد منكم حتى القَدُوم ، فسأشتري من السوق فأسًا لي ، وأنا سأعزق كل يوم صفًا بعد صف ، وتُساعِدني أنت يا متين .

من جَدِيد يُخَيِّم الصمت على الجميع ، وهذه المرة استدعت جدتي أختي الكبرى ، وقالت :

– ماذا ستقولين أنت يا «أويا» ، فعندما ترغبين في شيء تنزلين مُسْرِعة إلى أسفل ، وتقطفين ما تُريدين من الغصن طازجًا ، وهكذا تأكلينه بقشره طازجًا .

– ما الذي سآكله أيتها الجدة؟

– الكُوسة . .

ضحكنا جميعًا ، وضحكت جَدَّتي أيضًا ، آه كم كانت جَدَّتي العزيزة جَميلة ، وقالت وهي تَضْحك :

– اندهشت أنا ، هل تُؤكل الكوسة نيئة .

– كنت سأقول الخِيار ، وخَرَجت الكُوسة من فَمي .

نهضت جدتي وذهبت إلى جانب أمي، وبدأت تشرح لها حَشْو الكُوسة، كانت أمي تَعْمل المَحْشي مرة بالكُوسة المُشتراة من السوق، ومرة أخرى بالكوسة التي زرعتها جدتى بنفسها. بعد ذلك، تُضيف كل البهارات بنفسها، ولكن جدتي لا تَزْرع.. ولا تَغْرِس.

ومن جديد.. لم يُحرِّك أحد ساكنًا، ولكن كنت أنا أنظر داخل فم جدتي، فقد ذهبت هذه المرة إلى جوار والدي، وقالت:

- فضلى.

- تفضلي يا أماه..

- هل تقولُ على اليَخْينات (الأطعمة) التي أكلتها الآن يخنى؟

- لا شك أنها يخنى يا أماه.

- هه.. ليس المَوْضُوع داخلها هذه المرة باذنجان.

- ماذا إذن؟

- عَجين مخَمَّر ذو قشرة أرجوانية.

- الرحمة يا أُمى، هل يَكُون اليخنى بالعجين المخمَّر؟

obeikandi.com

– نعم، لو قلت على ذلك باذنجانًا ممكن أن يكون، ولكن يجب أن أَغْرِس أنا الطماطم، وأغرس أنا الفلفل والثوم، وأضع كل هذا فى اليخنى . . آي كيف لم يخطر ببالي، آي . . آي . . آي. ظننا أن شيئًا انْغَرَس في قَدم جدَّتي، إنها رفعت إحدى قدميها وكانت تقفز.

قالت أمي:

– ماذا حدث يا أُماه؟

صاحت قائلة: الثوم.

– أيتها الأم؟

– البصل . . .

سألتُ قائلاً: أيتها الجدة . . هل أَنا أَيضًا باذنجان؟

قالت: أى باذنجان؟ آى واه . . نسيت . . سأزرع البَصَل لكم، وسأَزْرَع ثومًا . . وكذلك شعيرًا . . شعير للخراف الصغيرة . . إلى جانب هذا لا نُريد شيئًا قط، ضَع بَصلة داخل خبزك . . والتهمه . . قضمة . . قضمة . . جثت على ركبتيها على الأرض وكأنها كانت تقيس الأرض بالشِّبر .

– حسنًا . . حسنًا، هكذا ثَلاثَة أشْبار، وهكذا أَرْبَعة أشْبَار، بَصَـــل . .

obeikandl.com

وبسرعة عادت خَلْفَها :

– هكذا يكون ثَلاثة أشْبار ، الثوم .

وكانت تعود إلى جانب منا :

– هكذا ثلاثة ، هكذا اثنان ، المقدونس . . .

أختي الكبرى تحب المَقْدونس جدًا ، وتأكله نيئًا في كل وَجْبة ، وأنا أيضًا أحبه ، ولكن ليس بالقدر الذى تحبه أختي ، ذهبت جدتي إلى جوار أختي الكبرى ، وأمسكتها من كتفها ، وكانت تقول : المقدونس يا "أويا" المقدونس . . خذى السكين في يديك ، اجري ، اذهبي ، اُحصْدي وتعالي . . . فَبينما تحصدين ينبت هو ، وبينما تحصدين أنت يَتَكاثر هو ، أظهرت إلىَّ أصابعها الخمسة وقالت :

سأزرع خَمسة جُذور فجل أيضًا ، فِجلة البُنْدق ، يؤكل يا متين بصوت قَرْقَشَة مثل العصافير . تقول له الجَّدة : هيّا يا «متين» ، هل سَنذهب غدًا إلى السُّوق ؟

– لا أعرف يا جدَّتي العزيزة ؟

– ليست ثقيلة ، فالشتلات صَغيرة هكذا ، وَخَفيفة ، فكل شىء في وقته ، يحفر الأرض ، سَنَحْفر الأرض فى الظروف المناسبة . فالأرض كما هى خصبة . . لم تُزْرَع قط ، ولو كان

obeikandl.com

ضروريًا سنشتري سمادًا أيضًا .

حافظ أبي وأمي على الصمت ، فكان أبي يقرأ جريدته ، وأمي أيضًا لم ترفع رأسها عن الكتاب الذي كانت تقرؤه .

قالت جدتي لوالدتي :

– انظري يا نبهات ، هيا بسرعة . . يا ابنتي ، لو تُريدين تقسيم جزء هكذا ، سأزرع زهرة أيضًا من الأزهار التي تريدينها أنت !

ومن جديد عندما لم تَحْصُل جدَّتي على جواب من أبي وأمي أيضًا ، قالت : هه . . كأنما ليس لدي نُقود ، فعندي مَعاش ثلاثة أشهر ، هه . . كَأنما لا أعرف طَريق السوق ، هه . . كأنما لا أعرف الفرق بين شتلة الفلْفل والباذِنْجان . . آي واه . . الآن لو أعطاكم البائع شتلة الفلفل بدلاً من شتلة الباذِنجان ، ستأخذونها . . وتذهبون وتشترون وتزرعون بشكل جميل ، وتجمعون الفلفل بينما تنتظرون الباذنجان . . .

بَدأت الضحك ، وكانت أَكْثر تألقًا ، تقول : الباذنجان ، وتَضْحك ، تقول : يَجْمعون الفلفل ، وتضرب بيديها على رُكْبتَيها ، وتقول : باذَنْجان أخضر ، وكان الدمع يتساقط من عينيها ، وبعد قَليل بدأتُ أضحك أيضًا ناظرًا إلى جدتي ،

وعندما ضحكت بدأت أختي الكبرى تَضْحك أيضًا، وشاركتها بعد ذلك والدتى وأبي، وضَحكْنا بصوت مرتفع كما لو أن هناك فيلمًا كوميديًا جدًا في التلفاز.

تقول جدتي:

– آي . . أيها الأطفال . . آي، جَعَلْتموني أضحك أكثر، وكانت كُلَّما سكتت برهة . . ضحكت من جديد، وبعد قليل بدأت الضحك من جديد.

لففت يدى حول عنق جدَّتى، فقبلتني وأعينها دامعة، وتفاهمنا بأعيننا، فسنذهب غدًا إلى السُّوق، وسنشتري الشتلات التي تُريدها، وقالت:

– لنزرع ونأكل نحن، وسترون عندما نَزْرع.

همست في أذن جدَّتي:

– جدَّتي العزيزة . . هل سَنزْرع شجرة برقوق أيضًا؟

– ولِمَ لا؟ من أين لا يوجد؟

– أنا أحب البرقوق كثيرًا.

– وهل أنا لا أحبه أيها الطفل، فأنا أيضًا أحبه كثيرًا، أوه، وهكذا المِشْمش غَض سَهل الكسر له نواة صغيرة جدًا.

obeikandl.com

كانت جَدَّتي ترف بعينها كأنما لو كانت تأكل مشمشًا ، وكأنما في يَدها طبق ، وكأنما داخل الطبق ملح . . شيء لذيذ ، فكانت تأكل المشمس الذي تمسكه بثلاثة أصابع من يدها اليُمنى .

لم يصبر والدي ، وقال :

– يكفي يا أماه . . جعلتِ لعابنا يسيل ، جعلتِ نَفْسنا تهفو إليه .

قالت جدتي مداعبةً شعري : سَـأزْرَع من أجل عَزِيزي «متين» .

قلت : أنا سأحفر حُفْرَتَها يا جدَّتِي العزيزة .

– ستحفرها أنت بدون شك .

غضبت جدتي من البصل الذى وُضِع على العشاء ذلك المساء ، وقالت :

– آى واه . . هل هذا أيضًا بصل ، لنرَ . . يَنْبَغي أن آكل أيضًا .

عندما قالت أُخْتِي الكبرى :

– غالبًا سيكون بصلك لذيذًا مثل التُّفاح .

قالت جدتي :

obeikandl.com

– سَنَرى، ليصل المنجل إلى بصلاتي الطازجة، وليكن هكذا شبرًا واحدًا، سَنَسْلق أنا ومتين البَيْض واحدة تلو الأخرى، وسننزل إلى الحَديقة، وسنقتلع من بصلنا، وسَنَغْسله، ثَم نَضْع البصلة والبيض بين الخبز. وسنأكله قَضْمة قَضْمة، وسَوف ننظر لكم هكذا من الناحية المقابلة، أوه.. داعبت نفسى!

قالت أختي الكبرى:

– قصدك يا جدتي العزيزة سَتَأْكلين ما زرعتموه مع متين فقط، أليس كذلك؟

– قالت جَدَّتي: الرَّحْمة، أي شيء يتبادر إلى ذهنكم، ولو كان أيضًا البصل حارًا فهل يَمر من حلقنا قط بدونكم؟

لا أعرف.. هل رأت جَدتي فى تلك الليلة في حُلْمها الباذنجان، الفلفل، الطماطم، البصل؟ لست أدرى ولكن رأيتها أنا، إن مدخل عمارتنا شديد الخضرة والطماطم حمراء جدًا، والباذنجان أرجواني أرجواني، والفلفل أخضر أخضر، وكلهم كانوا يبتسمون لي ويقولون: «اقطفنا يا متين.. اقطفنا يا متين».

استيقظت على طَرْق الباب، فلو كانت الأصابع تنقر فوق

obeikandl.com

الباب، أو تَتَدَقَّق أو كأنما تتجول، فيكون الطارق جدتي . . حقًا نَقَرت، وبعد قليل دَخَلت، ونقلت يدها إلى شفتيها، وقالت:

– هششششش . . أتعرف يا متين، هل تعرف لو أنني سأزرع أيضًا شبر لوبيا، فَسأزرع خمسة جذور بامية أيضًا، هل تذكر بكم كان كيلو البامية العام الماضي؟ هيا، لا تتوقف، فقد أعْـدَدت الشاي، لنشرب الشاي، ونسلك طريقنا إلى السوق.

– أليس الوقت مُبكرًا يا جدتي العزيزة؟

– لا . . يا عزيزي، لنذهب مبكرًا كي نَخْتَار أَفْضَل الشتلات.

– أفضلها؟

– بلا شك، يعني كَوْنها حَيَّة هكذا، فإذا ما غَرَست شتلة جميلة، حتمًا تمسك جذورها، ولكن إذا ما غرست شتلة مريضة وهزيلة هكذا، ألن تقول لي ضع السماد، وأضف الماء، تحني عنقها، وسرعان ما تذبل، ثم تموت.

كانت جدتي تضحك من داخلها، وشربت كوب شاي بسعادة، بيد أنها تشرب كوبًا واحدًا فقط كل صباح، وعلى

الفور صبت الشاي الموجود في إبريق الشاي، وغسلت الأكواب، وقالت:

- هيا.

- أليس هذا مبكرًا يا جدتي العزيزة؟

- هل يكون مبكرًا قط؟

أثناء ذلك تمسحت بقدمها «تاكر»، فغضبت كثيرًا عندما تمسحت القطة على قدمها، ولكن غضبت بطرف عينها من القطة كي لا توقظ أبي وأمي وأختي الكبرى، وعندما تغضب بدون كلام تحتضن القطة قائلة: افهمي، وتُحاول أن توضح لـ «تاكر» أنها غاضبة، فتقلص حاجبها، وتفتح عينها، بعد أن تقربها من وجه القطة التى لم تفهم؟! فكانت تنظر وتنظر لعينى جدتي المفتوحتين ووجهها المجعد، وحواجبها المتشابكة، وكانت تموء بلا توقف، كانت جدتي تهمس:

- ألم أقل لك لا تتمسحى بقدمي، ستجعلينى أقع يومًا ما، فأنت تقصدين إيقاعي وكسر ساقي..

- جدتي أنا جاهز.

- هل أعدت «تاكر» إلى رشدها..؟ هيا.. هيا.. لنذهب على الفور.

obeikandl.com

ارتدت جدتي معطفها، ولبست حذاءها، وفتحت الباب ببطء وأغلقته ببطء، ونزلت وهى تمسك درابزين السلالم.

– هل لو أخبرت «سورايا بك»، هيا بسرعة؟

– أيمكن أن يكون هذا قط؟ فالعم «سورايا» نائم الآن أيتها الجدة.

– الرحمة يا عزيزي، ماذا سيقول إذن، على الأقل، سيحمي جانبًا من حديقة العمارة.

ليكن هؤلاء الذين فى الجانب الآخر رجالاً، وليجعلوا الجانب الآخر أخضر.

وقفت على باب العمارة، ونظرت إلى المكان الذي ستزرع فيه شتلات الخضار، سارت، وكانت تستريح في مكان ما:

– كانت تصيح قائلةً: . . الفلفل!

ومن هناك، تقفز نحو الجانب الآخر، وكانت تصيح قائلة: الطماطم . .

تأتي بصورة متوالية، وتقف أسفل جدران الحديقة المنخفضة، وتصيح قائلة:

– لوبيا!

مضت إلى جانب نافذة الطابق الأرضي، وصاحت قائلة:

- الباذنجاااان!

فُتحت نافذة الطابق الأرضي، وظهرت رأس الخالة مريم، سألت قائلة:

- هل بدأت بَيْع الخضار يا حكمت هانم؟

ضحكت جدتي وقالت:

- ازرع.. ازرع.. ازرع الفلفل هنا، وازرع الباذنجان.

- آي.. كم يكون جيدًا، نظيفًا جدًا هكذا، أخضر جدًا...؟!

- هيا يا متين، امشِ.. لنذهب.

كانت الشوارع خالية، وكان نادرًا ما يخرج الناس من النواصى. لكن هؤلاء الناس كانوا مضطرين للعمل أيام سوق الأحد، هكذا.. ألا يوجد من يذهب للسوق ومعه كيس أو شنطة في يده مثلنا، فقلت:

- أيتها الجدة، ألم أقل لك: إن الوقت مبكر؟

- لا، ليس مبكرًا يا بنى.. انظر فذاك الرجل يذهب إلى السوق.

obeikandl.com

– أيتها الجدة ذاك بائع السميط؟

– ليكن . . يعني ألن يذهب بائع السميط إلى السوق؟

وكأنما أقيم مكان السوق، فكانت جدتي تسير مسرعة، وكأنها وجدت أن بيع الشتلات قد انتهى، وبقيت عدة شتلات فقط.

– أيتها الجدة، لنذهب ببطء.

– هيا بنا، لنزرع الشتلات.

– سنزرع أيتها الجدة.

– آه برقوق، برقوق، ومشمش.

حتى الآن كنت لا أرى شتلة الخضار، ولو سألت جدتي كانت تبدأ في الشرح صائحة في صمت الصباح، ومن يسمعها كان يظن أن شيئًا ما قد حدث في الشارع . .

– هيا.

وكانت جدتي تضحك من حين إلى آخر.

قلت: ماذا حدث؟

– سترى فائدة ذهابك مبكرًا هناك.

– ما الفائدة التي ستكون يا جدتي العزيزة؟

obeikandl.com

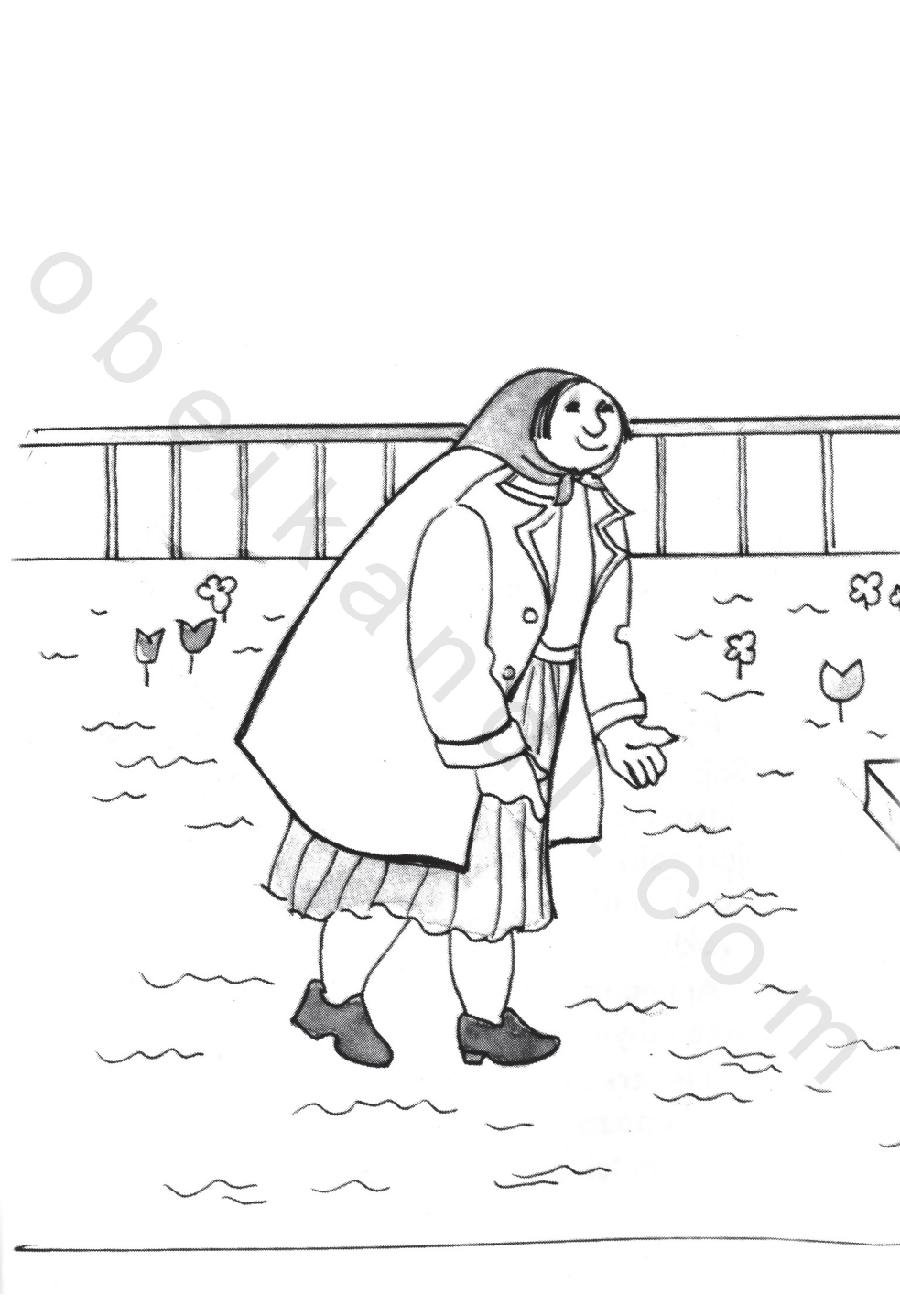

– إن الباعة يسمون أول بيعة . . الاستفتاح ، ويعطون بيع الاستفتاح رخيصًا جدًا من أجل ألا يتجولوا .

فهمت الآن ، لماذا سلكت جدتي طريق السوق مبكرًا ، فلم يكن التسوق هو الموضوع . وكانت إذا وضعت شراء شيء ما في ذهنها!! حتمًا كانت تشتريه . . لم تكن تأخذ بالثمن الذي قاله البائع فهى كانت مغرمة بالفصال والمساومة ، وحتمًا كانت تجعله يخفض ثمنه . آه . . والآن عندما يدخل موضوع الاستفتاح في عمل أيضًا . لنر إلى أي حدٍّ ستشتري جدتي الشتلات بثمنها الحقيقي؟

وعندما تعبت قليلاً ، غضبت لأن مكان السوق لا زال بعيدًا .

– ماذا هناك؟! يعني لو كانوا أسسوا السوق في الشارع الموجود خلفنا ، هه!

خطت عدة خطوات ، ثم قالت :

– الرحمة ، هذا ليس عدلاً .

كانت رائحة الجبن ، وذبابة الفاكهة تملأ المنزل . . .

كم يتبقى حتى نصل لذاك السوق؟ لما كانت قدماى

obeikandl.com

تساعدانى كنت أذهب حتى ولو كانت المسافة ضعفين.

– التفتت جدتى إلىَّ وسألت:

– هل تعبت يا متين؟

– وهل أتعب قط يا جدتي العزيزة؟!

خرجت شاحنة صغيرة من أحد المنعطفات، فلوحت جدتي بيدها، مثل شرطى المرور، غضبت ربما لو كان معها صفارة، لكانت ستنفخ فيها مثل شرطة المرور.. قالت:

– كأنما ستصل إلى السوق قبلنا، وتخطف هذا وذاك.

كنا قد صادفنا كلبًا صغيرًا جدًا، كان كلبًا أسود العينين مغطى بالشعر الأبيض عندما رأته جدتي، كفت عن الغضب من سائق الشاحنة، وجثت إلى جانب الكلب.

– قالت: متين، الكلاب لا تُمَسّ.. بل تُداعب من بعيد..

كانت لجدتي خِصال معينة؛ حيث كانت تُطلق على كل حيوان تراه اسمه، ولا تظن أن الحيوانات ستكون بدون اسم، كان حمار بائع اللبن ليس له اسم، فغضبت جدتي كثيرًا، وقالت لصاحبه:

– كيف؟ مستحيل يا سيدي، مستحيل، كيف تناديه إذن؟

obeikandi.com

– أقول له «جَوش» وأقول له «ده» يا حكمت هانم . .

– على مهلك . . هيا ، ستقول له «جوش وده» . .

وهل تقول أيضًا جوش عندما تدلله؟

– هل يكون للحمار الضخم تدليل يا حكمت هانم؟

– نعم ، ولِمَ لا يكون مدللاً ، هل رأيت جَمال عينيه؟! هل رأيت جمال أذنيه؟! من هنا ليكن اسم حمارك صاحب «الأذن الجميلة» ، هل فهمت ، وعندما تدلله تقول : «يا أذني الجميلة» . . يا «أذنى الجميلة» .

ماذا عليه أن يفعل العم أحمد بائع اللبن ، هز رأسه بما يعني الموافقة لجدتي ، وقال :

– حسنًا يا حكمت هانم ، الآن عندما أقول «أذني الجميلة» «أذني الجميلة» ، ألن يقولوا لي أين أذنك الجميلة؟ ماذا أقول إذًا . . إنهم سيقولون أذنك كالمغرفة . .

بعد ذلك اليوم كانت جدتي تسأل العم أحمد عندما يعطينا اللبن قائلة :

– كيف حال الأذن الجميلة؟

ودون أن يفكر العم أحمد ، يجيب قائلاً :

obeikandi.com

obeikandl.com

– بخير، يقبل أيديكم.

وعندما ترى جدتي شجار القطط في الشارع تصيح تجاهها قائلة:

– انسحب أنت يا «صارمن»، أدخل ظفرك لأنظر داخله. لا تمؤ يا «دومان» قائلاً: ماو . . ماو . .

بيد أن القطط لا تسمع جدتي قط، وتواصل مواءها بأصوات رقيقة وغليظة، وجدتي تصيح وتصيح من الشرفة.

– إني إلى جانبك الآن يا «صارمن»، احذر يا «دومان»، سوف أمسكك من أذنك.

تواصل القطط شجارها، ولكن جدتي في هذه المرة تقول محذرة:

– هذا زيادة عن الحد. . سأرسل لكم «تاكر» وهو سيتصرف معكم.

تفتح باب الشقة، وتريد إرسال «تاكر» إليهم إلى أسفل، ولكن «تاكر» لا يُخْرِج حتى طرف ظفره للخارج.

وكانت قد أطلقت أسماء على أحصنة الباعة ذوي العربات العادية من شارعنا، وكانت جدتي قد أسمتها كلها، ولم تنسَ الأسماء التي وضعتها قط.

obeikandl.com

– أطلقت اسم «آلو» على حصان بائع البطاطس؛ لأنه ذو ذيل طويل أبيض، وعلى حصان بائع النايلون اسم «صونا»، لأنه كان طويلا. فقد كان أطول من كل الأحصنة.

الآن قبعت على حافة الرصيف، وحاولت إطلاق اسم على الكلب ذي العينين المغطاتين بالشعر الأبيض.

– ذو العين البيضاء.. لا.. لا مستحيل.

تقف وتفكر:

– ذو الأذن المنتصبة، ولكن ذاك المسكين أذناه ليستا منتصبتين، ولأنني أعرف أنها لن تتحرك من هنا دون أن تجد اسمًا لذلك الكلب، كنت قد قبعت أنا أيضًا، وحقيقةً كان الكلب جميلاً جدًا.

– قالت جدتي: آه.. الآن سيكون لك مكان ذو فناء هكذا، سيكون المنزل الذي تعيش فيه وحدك مضيئًا، سيكون مثل المنزل الموجود في المركز الذي قضيت فيه طفولتي. فسوف تأخذ هذا الكلب، وتحمله وسوف تُصَبِّنه وتَغْسله، عندئذٍ يكون باموق (أى قطنًا).

صاحت قائلة: آاه يا متين، باموق.. باموق (قطن..

obeikandi.com

قطن)، ليكن اسم باموق، هذا هو اسمه، كانت قد أطلقت جدتي على ذاك الكلب أبيض اللون، والذي يحيط عينيه لون، قد أسمته «باموق»، وكررت الاسم ثلاث مرات قائلة له:

– انظر، ها هو اسمك «باموق».

سرنا، ثم عدنا نحن الاثنان، ونظرنا قائلين: هل يأتي الكلب خلفنا، فكنا أنا وجدتي نناديه قائلين: "باموق . . باموق"، ولكن الكلب كان يسير بسرعة في الجهة المعاكسة لنا.

زادت الآلات، فقد كنا نقترب من مكان السوق. بعد قليل كانت تنبعث رائحة، الهواء تشممت جدتي وقالت:

– أوه . . رائحة السوق تنبعث، أحب تلك الرائحة، رائحة السوق يا متين، من يعرف ربما أحبها لأنها تذكرني بذلك المركز الذي قضيت به طفولتي، وقريتنا الموجودة فيها، ورائحة الفاكهة الموجودة في الحديقة والخضار أيضًا، يا متين . . تنبعث رائحة مثل رائحة الفلفل الأخضر، ولكن البذور ليس لها رائحة قط . . . يا . . رائحة الطماطم . . تنبعث رائحة شيء شديد الخضرة ومدور، قد يكون خرشفًا، لا . .

obeikandl.com

لا يوجد خرشف هكذا الآن، آاااه . . انظر، كان الخرشف متغنجًا، الفلفل لا يشبه الباذنجان قط، وتريد أن . . انظر . . الخرشف يُريد الماء، ولكن سَتَعْرف كمية الماء المناسبة، إذا أعطيت ماءً كثيرًا، يموت الخرشف، ولن يُكَوِّن جمجمة.

– ما الجمجمة يا جدتي العزيزة؟

جذبت داخلة:

– كيف ستعرف، وأنت لم تأكل خرشفًا قط!

كان الناس قد تجمعوا أمام قهوة، وكانت شاحنة قد اقتربت من القهوة، فكانوا يُنْزِلون منها الفاكهة والخضار، صندوقًا صندوقًا، وكان قائد الشاحنة يحمل البرتقال على عربات اليد، وكان هناك شخص يحاول المرور إلى الرصيف المواجه للشارع حاملًا بصلًا طازجًا في شكل حزمتين ضخمتين، وكان هناك بائع سحلب ينادي دون أن يقف، قائلاً:

– هيا السحلب، السحلب الساخن.

وكان هناك أناس أمام القهوة يشربون الشاى بسرعة، وهم واقفون، فهؤلاء هم بائعو السوق، وبعد قليل سيرتدون ملابسهم الخاصة بالعمل، ويتسابقون مع بعضهم البعض، منادين من أجل بيع سلعهم. فكل واحد كان سيجد اسمًا يمدح

به السلعة التي باعها، فعلى سبيل المثال، كان اسم الخيار؛ «الغض الطري»، والبرقوق؛ «جمال العالم»، والفاصوليا؛ «اللبن هذا اللبن».

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها صاحب السوق، ففي كل المرات التي أتيت فيها مع أمي، كنا نصل إلى السوق بعد الظهر. عندئذٍ يكون الباعة قد أخذوا أماكنهم في السوق، ويكون القادمون إلى السوق قد احتشدوا مع المشترين، ولو رميت إبرة لن تقع على الأرض، وكانت الأصوات تتشابك . . صوت المشتري مع صوت البائع، وصوت البائع مع صوت المشتري، ولو أرهفت الأذن إلى جانب أي منهم ستسمع صوت المساومة:

– هل مستحيل إلى ذاك الحد؟

– مستحيل.

– ليكن جيدًا إلى حدٍّ ما.

– لا، قلت: هذا كثير، لو كان كذاك سأشتري.

ولكن الآن لا توجد هذه الأصوات قط، كانت طاولات البائعين الموجودة على أرض السوق في لون البرتقال ولون الليمون، فالخس الأخضر والطماطم الحمراء كان كل منهما

قد رصت صنفًا صنفًا مكونةً أشرطة حمراء وخضراء . . ولكن الناس الذين أتوا وتجولوا بين هؤلاء هم الآن نائمون على أَسِرَّتِهِم، وكنت أنا وجدتي فحسب نتجول داخل السوق، ولا يوجد باعة أيضًا فى مقدمة الطاولات.

لذلك كانت جدتي تلمس البرتقال بكل راحة وتقول:

– يا إلهي، كم هي طازجة !

ثم تتركها، وتتحسس بدلاً منها هذه المرة السبانخ، وتقول:

– يا إلهي، كم هي طازجة!

كنا نمر من هذه الطاولة إلى تلك، ومن غيرها إلى الأبعد، وكانت تبتسم لي أثناء ذلك، وتسأل قائلة:

– انظر يا متين، هل أمكنك التجول على أرض السوق بكل راحة، هكذا حتى الآن؟

– يا إلهي، لم يبدأ السوق بعد يا جدتي العزيزة.

– لم يبدأ، ولكن كل الخضراوات والفواكه هنا موجودة.

يعني لو قلت لها في تلك اللحظة: «هيا يا جدتي العزيزة، لتقومي أنت بدور البائع، وأنا بدور المشتري، ولتمضِ أنت

خلف الطاولة، ولأمضي أنا أمامها»، كانت ستقبل على الفور.

كانت تأخذ البيض بيدها، وتنظر إليه، ثم تضعه مكانه، وكانت تتحسس سُرَّة (قلب) الخس، وتهز المقدونس في الهواء، وتمسك الليمون، وتُقَرِّبه الى أنفها وتشمه.

– هل أتينا للتنزه في السوق، يا جدتي العزيزة؟

– آه يا متين، عندما ترى المكان خاليًا تمامًا هكذا، يا ترى أين تُباع شتلات الخضار وشتلات الفاكهة، اسرع لنسأل أحدهم عن أفضلها.

وبينما كانت جدتي تمر من الفراغ الصغير الموجود بين الطاولات التي وضعت جنبًا الى جنب تعلق معطفها بمسمار. وبينما تُناديني لأنقذها، ارتطمت اليد بجوال البطاطس، فانهار جوال البطاطس؛ لأنه كان في وضع مائل، وتناثرت البطاطس في المنطقة.

– آه . . آه . . آه وضعوا الجوال الضخم كما لو كانوا وضعوه على المسمار، آه لمست يدي الجوال لمسة خفيفة. . ياه . . ماذا كان سيحدث لو لمسه ذراعي!

بدأنا نَضع البطاطس التي تبعثرت على الأرض في جوال

البطاطس.

– أسرعي قليلاً أيتها الجدة، فلو أتى صاحبها سيغضب.

– آه.. كان سيغضب، لنر من سَيَغْضب مِمَّنْ، فهو يعرف أنه وضع المسمار هناك، ومَنْ يمر من هنا يقبض عليه المسمار، كما يقبض الفخ على الصيد، ليقل خذ ٢ كيلو بطاطس من تلك، وإلا سأمزق معطفك.

بقيت عدة ثمرات من البطاطس على الأرض، عندئذٍ أتى صاحبها قائلاً:

– ماذا حدث؟

– قالت جدتي: لا شيء، نُساعدك، ما شاء الله، أمسكتُ واحدة ومتين الأخرى.

– آه، هل جعلتم جوال البطاطس ينهار؟

– قالت: لا، هو انهار من نفسه، فقد لمسه طرف يدي هكذا، هوب... ولكن لا يهم، فقد جمعناها كلها، والآن قل لنا: أين تباع شتلات الخضار؟ وأين تباع شتلات الفاكهة؟

عاد بائع البطاطس إلى نفسه، ونظر فيما حوله، قائلاً:

– ها.. هي هنالك أيتها الخالة، هناك عند أشجار

obeikandl.com

الصنوبر. ولكن هل يوجد أحد هناك الآن، أم لا يوجد؟ فأنا لا أعرف . . لماذا أتيتم إلى السوق مبكرين هكذا؟

– قالت جدتي لاصقة كلامها بكلام بائع البطاطس :

– جئنا من أجل الاستفتاح .

ضحك بائع البطاطس، وقال :

– تعالي أيتها الخالة، واستفتحي مني أيضًا، وسأعطيك بسعر رخيص .

أجابت جدتي قائلة :

– قلتُ لك يا بني، جئنا أنا وحفيدي لشراء شتلات خضار وشتلة برقوق. ولكن أنت ستبيع بطاطسك إن شاء الله، فلا تكن فضوليًا. وعلى أى حال لو نظرت داخل الجوال، فالبطاطس لم تبق حتى داخل الجوال، وتبعثرت على الطريق صفًا صفًا خلفنا، وتناثرت، يعني بطاطسك ليست ثابتة وإنما على وشك الذهاب . .

– تسلمين أيتها الخالة، تسلمين . .

كانت هناك أشياء تُباع عند البقال على كلا الجانبين، فهناك أرز ومساحيق تنظيف وصابون ودقيق وسكر ومكرونة

obeikandl.com

وملح . . فالباعة قد رتبوا سلعهم ونظموها، ونقشوا على أكياس السكر والأرز والدقيق. ووضع أيضًا أمامه أجزاء الجبن الصغيرة والسميط، كان البقال يتناول إفطاره والشاي الذي اشتراه من بائع الشاي المتجول، فبائع الشاي الرحَّال رتب أكواب الشاي على صينيته، وكان قد وضع غلاية الشاي الضخمة بينها. كانت غلاية الشاي مملوءة بالشاي، ولو أراد أيُّ بائع شايًا كان على الفور يسكب الشاي من الغلاية في الكوبً، ويقدمها واضعًا قطعتين من السكر من جانب، ومن جانب آخر ينادي قائلاً:

– شاي طازج ذو نكهة.

كنا قد وصلنا إلى جانب أشجار الصنوبر، ولم يكن هناك شخص قط، ولا شتلات أيضًا قالت جدتي:

هه، إذا نظرت . . انظر . . انظر إلى الشتلات هكذا.

– شتلة ماذا أيتها الجدة؟

– لو نظرت يا بني هكذا، هذا البرقوق، وذلك الخوخ، وهذا أيضًا التوت . .

الأشياء التي وصفتها لي جدتي قائلة: شتلة، كانت عصا طويلة، وفي أسفل هذه العصا بعض التراب، وكانت

مجموعة جُذور تنبثق من داخل الطمي .

– هل هذه شتلات الشجر ، يا جدتي العزيزة؟

– ياه ، هذه ، انظر ، هذه شتلة شجرة توت !

– التوت ! وشجرة التوت الضخمة موجودة وسط زجاجة؟

– بلا شك ، شجرة التوت تلك الضخمة ، كانت شتلة مثل هذه .

– تلك العصا يا جدتي العزيزة .

– كانت عصا . . هل هي عصا الآن؟ انظر أيضًا ذلك هو البرقوق .

– برقوق؟

– بلا شك ، برقوق .

– ذلك يعني أن البرقوق الذي نأكله يأتى من هذه الشتلة .

– بلا شك ، انظر ، سترى . . سيصير هذا غُصْنًا كبيرًا يحمل ورقًا كثيرًا ثم ستتفتح الأزهار ، وتظهر الثمار .

– هل الآن؟!

– لا ، ليس الآن ، ليزرع البرقوق عامَين ، ثم يثمر .

obeikandl.com

أخذت شتلة البرقوق، وكنت لا أتركها من يدي، وكانت عبارة عن جزء من غصن رقيق غير مُورِق، يعني أن هذا الغصن سيعطيني الفاكهة التي أحبها أكثر، البرقوق الأخضر الرطب؟ من يعرف، ربما كنت أستطيع التسلق عليه.

– جدتي، هل شجرة البرقوق ضخمة؟

– بلا شك.

– وهل يمكننا تسلقها؟

– يمكنك تسلقها، وتعليق أرجوحة عليها!!

كنت سعيدًا جدًا، فسوف أتسلق الغصن، وسأقطف البرقوق وأضعه داخل وعاء، وسآكله لأنه لذيذ الطعم.

– جدتي، أتأرجح على الأرجوحة وأقطف من الغصن هكذا . .

داعبت جدتي شعري، وقالت:

– اقطف وكُلْ، ولكن لا يؤكل الطعام دون أن يُغْسل يا متين.

– جذبته جدتي، وقالت:

– هكذا يكون يا متين، كنت أنت أيضًا كهذه الشتلة التي

obeikandi.com

في يدك، وستكبر أنت أيضًا، وتصير ضخمًا، وستَطْعن في السن مثلي، ولكن ينبغي على الإنسان أن يترك للآخرين أشياء تنفعهم، وألا يعيش بمفرده أو لنفسه فقط، فليغرس شجرة وأن تكون جيدة، وأن يحب الناس، ويسرع لمساعدتهم، وأن يقاسمهم أحزانهم وأفراحهم، وأن يستنبت . . .

كنت أقيس طول ارتفاع الشتلة، كنت أنا أطول إلى حدٍّ ما، قالت جدتي:

– العام القادم سيفوقك طولًا؛ بل وسيفوقنى أنا، والعام التالى ينظر لنا من أعلى، وتكون شجرة ضخمة.

كنت آخذ شتلة، وأترك الأخرى، ولم أقرر أيها سأختار، فقد كانت شتلات البرقوق عديدة.

– أيهم أختار يا جدتي؟

– قف، لتنظر يا متين، فهناك برقوق أيضًا، وهناك نوع لاذع، وآخر لذيذ، وهناك أيضًا مشمش وبرقوق ذو رائحة وآخر طويل، فأنواع البرقوق عديدة نوعًا ما، ليأتِ البائع ونتحدث معه.

– هؤلاء يا جدتي العزيزة؟

كنت أشيرُ إلى شتلات مُسْتندة على الحائط بعيدة قليلاً،

obeikandl.com

نظرت جدتي، وأخذتها بيدها، ونظرت إلى جَنْبها، ونظرت إلى جِذْعها، ولم تعرف بشكل قاطع.

– مهما قلتُ لا أعرف يا متين، ليس مِشْمِشًا، ولكنه يشبه المشمش، ولكن هل تعرف ماذا يشبه، إنه يشبه الفراولة.

– الفراولـ. . .ـة؟ هل ستشترين شتلة فراولة يا جدتي العزيزة، فأنا أحبها كثيرًا؟

– لنشترِ.

– تسلمين يا جدتي العزيزة . . هل شجرة الفراولة صغيرة؟

– لاااا . . إنها طويلة، لها أوراق شديدة الخُضْرَة، وبين أوراقها الخضراء، فراولة مُكَوَّرة، وهي متفرعة . . فأقطف وأجمعها في السلة، وأغسلها وآكلها.

– جدتي، لو زرعناها هل ستثمر على الفور؟

– لا، بعد عدة سنوات أيضًا.

– أيها يثمر على الفور يا جدتي؟

– الخضار.

أتى رجلان، وبدآ يعدان الشتلات المستندة على الحائط

obeikandl.com

الأمامى، ونظرا لعدد الشتلات الموجودة خلفه، وعندما كانا يتممان على عدد الشتلات وضعا حِزْمة الشتلات على الأرض ببطء، وبدآ يعدانها من البداية قائلين: واحد . . اثنان . . ثلاثة . . وعدا شتلة البرقوق الأخيرة، حيث أخذت جدتي شتلة برقوق من الأرض، قال الرجل:

– اشتريتها أنا أيتها الخالة.

قالت جدتي:

– هذه، أشارت للشتلة الموجودة في يدها، نحن اشتريناها قبل الآن بكثير، انظر، لماذا كنا ننتظر هنا؟ هل تصدقنا، أم تظن أننا شتلات؟! كنا ننتظر من أجل شراء هذه الشتلة أيضًا.

ضحك الرجلان كلاهما، وقالت جدتي:

– ماذا لو قمنا بالمساومة عليهما؟

ثم سارت نحو الشتلة التي أشارت إليها قبل قليل، وأخذت واحدة في يدها، وأتت وسألت قائلة: هل هذه شتلة فراولة؟

– من أين عرفت أيتها الخالة؟

نظرت جدتي إليَّ كما لو كانت تقول: انظر كيف عرفت أنا . .

– كيف . . ؟ هل فراولتها ضخمة؟

obeikandl.com

– أيتها الخالة سوف تُطعِّمونها . .

– ها . . طُعْم ، بعد أن ينمو .

– بلا شك أيتها الخالة .

– جيد ، كان عليَّ أن أسأل : لا يُوجد . . لا يوجد ، عليَّ أن أتركه مكانه ، لو كان هذا البرقوق برقوقًا لاذعًا فلن أشتري حتى لو كان بذره ضخمًا .

البائع :

– أيتها الخالة ، إنكم اشتريتم برقوقًا جيدًا ، انتظروا لتروا ، . . ستتذكروني عندما تأكلون برقوق هذه الشتلة واحدة تلو الأخرى ، هل ستزرعون الشتلة في الحديقة ؟

– لا سنزرعها بالعمارة .

– لم أفهم ؟

– يا عزيزي فى حديقة العمارة .

– آه لو تركها الأطفال !

– برقوقها . . ؟

– نعم برقوقها ، أيتها الخالة . . الأطفال لا يمكنهم الصبر على البرقوق .

obeikandi.com

– أمْسَكتني جدتي من كتفي وقالت :

– سأزرعها أنا من أجل الأطفال ، وسأزرع فراولة أيضًا من أجلهم .

عندما سمع البائع كلمة الأطفال ، قال ثمنًا رخيصًا ، حيث خشيت مع ذلك أن تبدأ جدتى أيضًا فى الفِصال ، ولكن حدث شيء عجيب ، فلم تساوم جدتي لأول مرة ، وأخرجت النقود التي أرادها الرجل بسرعة .

– أمسك يا متين لنرى الفراولة والبرقوق . .

أمسكت واحدة من كل الشتلات .

سأل الرجل :

– جيد ، هل تعرفين كيف تُزرع أيتها الخالة؟

قالت جدتي : لماذا ينبغي ألا أعرف؟

– لا تغضبي يا خالتي ، فمعظم نساء المدينة لا يعرفن زراعة الأشجار .

– أووو ، أنا أعرف لأنني جئت من المَرْكز ، لو تُريد نعطيك عنواننا ، وتعال بعد ثلاث سنوات لتأكل البرقوق .

ضحك البائع ، وضحك الرجل الآخر أيضًا ، ولوحت لهم

obeikandi.com

جدتي بيدها وقلتُ :

– إلى اللقاء . . أستودعكم الله .

كانت جدتي سعيدة مثلي ، وقفتْ . . ووقفتُ ، وقالت :

– حسن أن ذهبت أنت إلى الجانب الآخر ، هل تستطيع أن تفرق بين الشتلات الموجودة أمام عينيك من بعيد هل هي الفراولة أم الكريز أم التوت؟

فقلت : لا أستطيع أن أفرق قط .

فقالت : عندما تمتد هذه الفراولة وترتفع نحو شرفتنا ، هاه . . ثم تُثْمر الفراولة الحمراء على حافة الشُّرْفة ، اقْطف اقطف وكل . . أما «تاكر» فسوف يتخلص من الصعود والنزول على السلالم ، حيث يقفز من الشرفة على شجرة الفراولة ، هووب ينزلق إلى الأسفل مثل الأسانسير .

وقفنا . . نظرت جدتي مرة واحدة إلى الشتلات ، وقالت :

– احذر وقوعها على الأرض ، سنضعها فى حفرة مع الطمي الموجود على هذا الجذر . . .

كانت جدتي تحكي لي عن أشجار الفراولة الموجودة في المراكز ، حيث كانت تملأ سلة البيض عند القطف .

– عندما أقول سلة البيض فلا تظنها صَغِيرة ، هل تعرف تلك

obeikandl.com

الحلَّة الموجودة عندنا في البيت، فسلة البيض في حجمها. فكنا نجمعه ونأكل منه ما نأكله، والباقي تصنع منه والدتي مربى.

قلت: والدتي أيضًا تصنعها.

- ربما تَصْنعها، الفراولة تُثمر كثيرًا مثل الخَلِيَّة؟

- خَلِيَّة؟

ضحكت جدتي وقالت:

- تقول هكذا، أي لو كان هناك فاكهة كثيرة ذلك العام، كنا نقول: المشمش مثل الخلية.. السفرجل مثل الخلية..

كانت جدتي تحكى لي عن السَّفَرْجل الأصفر، حيث كان موجودًا خلف منزلهم، وكان الماء يملؤه، وكان هناك شجرتا رُمان، في مقابل السفرجل، كان الرمان يتنافس مع السفرجل، قائلاً: ستُثمر أنت أكثر، سأثمر أنا أكثر، وقد يُقْطع وهو شديد الاصفرار من طعم السفرجل اللذيذ. وقد يَنْشق الرمان إلى اثنين في الوسط مُصْدرًا صوت فرقعة من لذة الرمان، فلو قَطَفت السفرجل يَسْتاء الرمان، ولو جُمِع الرمان يستاء السفرجل. فلو ذهبت إلى جانبهم، حتمًا كنت ستجمع من كليهما أيضًا. ثم قالت جدتي:

- أنا أيضًا أقطف سَفَرجلاً، ولو أكلتها، أقطف رُمَّانة أيضًا

obeikandl.com

فى المقابل وآكلها، قائلة: لا تمتعضي..

ليست زهرة السفرجل أجمل أزهار العالم، ولكن زَهْرة الرمان لا ينبعث منها رائحة، ولكن، كان نحل العسل لا يبتعد من فوقها. كانت أوراق الإكليل قد تساقطت بسرعة، لكن أزهارها كانت تظل حتى أسبوعين متواصلين، وكانت حمرة الرمان أَجْملَ حُمْرَة.

– حسنٌ يا متين، أين يبيعون شتلات الخضار؟

كان بائعو السوق قد أخذوا أماكنهم خلف طولاتهم، وارتدوا ملابس العمل، ووضعوا موازينهم أمامهم، كانوا ينتظرون المشتري، وكانوا ينادوننى أنا وجدتي صائحين:

– تفضلوا تفضلوا.. نستفتح.

وعندما ذهبنا إلى بائع الخضرة، قال:

– ستستفتحين مني أيتها الخالة، تفضلي أيتها الخالة!

– تفضل يا بني، أعمال مباركة.

– تسلمين يا خالة.

– سوف لا نشتري المقدونس يا بني، سنشتري الشتلة.

– الشتلة؟

– هه ، الطماطم ، الفلفل ، الباذنجان .

أشار الخضري بأصبعه تجاهه ، وقال :

– في المَدْخل يا خالة ، هناك صَفَّان .

– تسلم يا صغيري .

عادت جدتي إلى الوراء .

– خطر ببالي عندما رأيت المقدونس يا بني ؛ كنت سأشتري القليل من بذور المقدونس أيضًا .

– قال بائع الخضار :

– هو أيضًا هناك يا خالة ، هناك بضاعة العِطَارة الصغيرة ، فما تريدينه عند العطار .

هزت جدتي رأسها ومشينا ، كان الناس يمرون من جانبنا ، قبل قليل بدأ الناس يتزاحمون في السوق الذي لا شيء فيه خلاف الباعة وطاولاتهم ، بدءوا يتجولون بأكياسهم وسلاتهم ، وكانوا يحاولون إيجاد الشيء الطازج الذي سيشترونه وأرْخَصه .

وقبل قليل ذهب بائع السحلب ، وأتى بائع السميط مكانه ، وكان قد أخلى أمام القهوة الموجودة في المدخل ، وكان هناك من ٨ إلى ١٠ حمالين يُنْزِلون صناديق من شاحنة ضَخْمة بسرعة ،

obeikandl.com

ويحملون الصناديق على ظهرهم، ويسرعون بها ليضعوها جوار الحائط، حيث كانوا يضعونها فوق بعضها البعض.

كان خلفها شاحنة مملوءة بالليمون الهندي المُجَفَّف، كانت تتراجع للخلف بتأنٍّ، وتحاول الاقتراب إلى جانب الحائط، وكان هناك رجل مُسِن في يده كيس نايلون، يحاول العبور إلى الجهة الأخرى من الطريق. كان الكلب الذي أطلقت عليه جدتي اسم (باموق) يجول بين صناديق الفاكهة الموجودة في المقدمة قليلاً. وكنت سأريه لجدتي، فمضى خلف الصناديق، قالت جدتي:

– تمام، انظر، ها قد رأيت الشتلات . . .

بينما كنا ننظر تجاهها، جئنا إلى جانبها. كانت جدتي توضح لي. .

– انظر، هذا باذنجان . .

– أجاب البائع:

– ولكن، يالَه من باذنجان يا خالة!! ليس مرًا قط. حتى باذنجان «كمر». يمكن أن تأكليه طازجًا.

– هل يؤكل الباذنجان نيئًا قط يا بني؟

– ليكن مزاحًا، قلت يا خالة يعني شتلات الباذنجان

الموجودة عندي أفضل شتلات السوق.

– هذه طماطم يا متين . .

بدأ البائع هذه المرة يمتدح شتلات الطماطم، قائلاً:

– الطماطم، طماطم جَبَلِيَّة، لذيذة جدًا . . .

وبينما تريني جدتي شتلات الفلفل، بدأ البائع هذه المرة يَمْتدح الفلفل. كنت أفضل أن آكله نيئًا، ولو احمر الفلفل يكون حريفًا جدًا وقد يضر بصحة الإنسان، لذلك أفضله أخضر، وليس غيره.

سألته جدتي:

– هل هذا الفلفل حار؟

– هناك حار، لدي أيضًا، انظروا. . هذا لطيف.

– أزرع، ولو أثمر يكون حارًا؟

– مستحيل يا خالة، نبيع هنا كل عام، هل يكون شيء هكذا قط، لو قلت حار يكون حارًا، ولو قلت لذيذ يكون لذيذًا.

لم أرَ قط، يعني ستثمر هذه الشتلات الطماطم والفلفل والباذنجان الذي آكله.

obeikandl.com

– جدتي، هل هذه ستصبح شجرة أيضًا؟

ضحك البائع، فغضبت منه جدتي وقالت:

– لماذا تَضْحك؟ أنت أيضًا لو عشت داخل أكوام الخرسانة في مثل المسكن الضيق (الفقير) لن تعرف هل الكوسة على شجرة أم على شتلة، وهل الباذنجان في داخل الأرض أم الجذر على بداية التعليقة.

قال البائع:

– عندك حق.

– وضحكت جِدتي وقالت:

– يكبر هذا يا متين قليلاً قليلاً، فالفلفل والباذنجان يكونان من ٣ إلى ٤ أشبار، ولا يزيدان على خمسة أشبار، ويظل هكذا.

كانت جدتي تحسب متمتمةً وتفكر: أي شتلة ستشتري؟ وكم واحدة؟ فكانت تفتح أصابعها وتضمها، وتشخص بعينيها في الهواء، ثم في الأرض وفي الشتلات، ثم تنظر لي، وتتمتم من جديد.

– يكفي عشرة جذور فلفل . . . لا . . لا . . ليكن ثمانية فقط . . . سيأكل كل الجيران يا عزيزي، ليكن ١٥ شتلة، نعم

obeikandi.com

. . نعم . . ليكن ١٥ شتلة .

– ١٥ ؟

استاء البائع ، ونظر لوجه جدتي .

قالت جدتي :

– ماذا ظننت ؟ ! هل سأشتري ألف جِذْر ؟ ! غالبًا ظننت أن أرى حقلاً ! آى واه . . سأزرع حديقة العمارة ، حديقتها .

لم نترك البائع ، واختارت شتلات الفلفل واحدة واحدة ، وجعلتها حزمة خضراء ، ووضعتها على جانب آخر ، للقيام بالحساب من جديد .

– لو كان الآن عشرة جذور . .

– هل الباذنجان يا خالة ؟

– توقف ، لا تُصَدِّع رأسي .

– ما الذي يغضبك يا خالة ؟

– بكم سأشتري الواحدة من شتلات الباذنجان ، وكم ثمرة سوف يأكلها كل بيت ، وكم سيحشون ، كنت أحسب كل هذا . .

– أووو يا خالة ، ليتك تحسبين كفتة الحشو .

obeikandl.com

– يا بني هذه الحديقة حديقة العمارة، حِسابي ذلك، هناك سيدة في الطابق الأسفل أنسى اسمها طوال الوقت، فوقها الإسكافي. لو حسبتُ كل مَنْ في الطوابق الأعلى سوف أقسم جذورهم هكذا، وسأشتري الشتلات الباقية، هكذا ينبغي أن أحسب، وينبغي ألاَّ أدفع نقودًا قط للباذنجان.

– حسنًا يا خالة، سأحضر لك الآلة الحاسبة.

– لا تذكرها، أعطني من هناك خمسة عشر جذر باذنجان أيضًا. لا . . لا تلمسها بيدك، سأختار أنا.

اختارت جدتي شتلات الباذنجان أيضًا ، ووضعتها على الأرض، ثم أخذتها مجددًا، ثم ربطتها، وجعلتها حزمة، ووضعتها جانب الفلفل.

قال البائع:

– هل أعطيكِ خمسة عشر جذر طماطم أيضًا يا خالة؟

– آي، انظر لتلك كأنما لدينا مصنع صلصلة، آى واه، لا . . سأفعل أنا، ١٥ جذرًا، كان قد بدأ فرد الطماطم، هكذا حِزْمَة حِزْمَة . . لو كان ١٠ جذور تكفي. توقف. . لا تختر أنت، سأختار أنا.

اختارت جدتي ١٢ شتلة من شتلات الطماطم، كيف حسبتها؟! ما أتى ببالها؟! فقالت:

- لا يكفي، ليكن ٣٠ . . . .

ضحك البائع وقال:

- الآن قررت أنك لن تؤسسي مصنع صلصلة على الأرجح؟

قالت جدتي:

- هه، لو أسست مصنعًا سأجعلك رئيسًا للعمال.

ساعدت جدتي، وبدأت أختار أيضًا، كان لشتلات الطماطم رائحة حسنة، هل لمست يداك ورقتها، وكانت رائحة حسنة تُشبه الطماطم، تفوح في المنطقة، وكانت جدتي تعتمد على الفصال لضرورة ما، وقالت:

- آى . . . . . آى

«آى . . .» عند جدتي، كانت تعني صوت بداية الفصال، بعد «آى . . .» . . أمسكت جدتي السلعة التي اشترتها بإحكام، وبدأت الكلام، ومهما يقول البائع لا تسمعه، وكانت تسمع ما قالته لنفسها فقط.

- آى . . . ؟

obeikandl.com

– كانت قد قالت جدتي . . آى . . الثانية .

– ماذا تعني «آى» يا خالة؟

– تكلم يا بني ، تكلم حتى نتفاهم .

– سنتفاهم على ماذا يا خالة ، هكذا ١٥ و ١٥ و ٣٠ ، ثمن الكل ٦٠ ، وبمجرد أن قال البائع ثمن ٦٠ شتلة ، بدأت جدتي تضحك مقهقهةً كما لو أنها سمعت شيئًا كوميديًا .

– ما الذي أضحكك يا خالة؟

– لماذا ينبغي ألا أضحك يا بني ، قلت شيئًا هكذا أنا عندما أشترى شيئًا لا بد أن يكون ثمنه مرضيًا ، وأحصل على ربح من ورائه .

– هل شتلت شيئًا هكذا قط؟

– يا بنى لزراعة هذا يحتاج فأسًا ، يحتاج سمادًا ، يحتاج ماءً ، يحتاج كل هذا كل الجهد مع جَمْعِه ، خذ أنت تلك النقود ، أعرف كم ليرة أعطتها جدتي للبائع . قال الرجل :

– مستحيل . . مستحيل يا خالة ، وصلت جدتى حتى دكان العطار .

– يكون . . يكون .

– مستحيل .

obeikandl.com

كانت جدتي تشتري بذور المَقْدونس من العطار، وكان بائع الشتلة خلفها، كانت جدتي تتحدث مع العطار، بينما يقول بائع الشتلات: مستحيل. . مستحيل.

– هل أنت هنا كل أسبوع؟

– أكون هنا يا سيدتي.

– سأشتري أنا بذور أشياء عديدة أيضًا.

عادت جدتي للوراء، وبعد أن أعطت نقودًا أكثر قليلاً لبائع الشتلة، قالت:

– لن أعطيك أكثر من هذا قرشًا واحدًا.

– قال بائع الشتلة:

– حسنًا، هذا جيد.

غَضبت جدتي هذه المرة من النقود التي أرادتها من أجل بذور المقدونس كملء خاتم العطار، أنقصت قليلاً منها، عندما طلبت من الرجل، قالت:

– آي، ملء خاتم، خاتم. ماذا لو اشتريت ملء سلطانية.

– ماذا ستفعلين بملء سلطانية بذور مقدونس أيتها الخالة؟ هل ستزرعين حقل مقدونس؟

obeikandl.com

وأعطتني جدتي بذور المقدونس بورقتها، ووضعتها في جيب بنطالى، وكانت البذور صغيرة.. صغيرة جدًا، وهي بذور المقدونس الذي تحبه أختي كثيرًا. لهذا كانت أختي سعيدة جدًا، وقالت جدتي:

– هيا لنذهب، آي آي آي، وهل كنا فى المركز ندفع ثمنًا لبذور المقدونس قط؟ كنا نتبادل البذور.. وكنا أيضًا لا ندفع النقود للشتلة، كنا نعزل بعض الباذنجان قائلين: كانت مَحَافظ الباذنجان مليئة بالتقاوى وكانت ضخمة جدًا، ثم نأخذ من داخلها البذور ونُجَففها، عندما يحين وقتها كنا نزرعها في المشتل، ثم نزرعها فى المكان الآخر بسرعة.. وهكذا الفلفل أيضًا والطماطم.

– يعني يا جدتي بذرة هذه الشتلات هكذا؟

– ماذا ظننت، بذورهم هكذا، انتظر.. ماذا سأزرع؟ سترى، فاصوليا ولوبيا، وكوسة وذُرَة وخيار...

كانت جدتي تحمل شتلات الخضار كما تحمل الطفل الصغير في حضنها، وبينما كنت أسير في الطريق كنت أنظر إلى شتلة البرقوق وشتلة الفراولة، فكلاهما عصاه طويلة مثل التي نلعب بها، ولكنها ليست جافة كهذه العصا الصلبة.

obeikandl.com

عرفت جدتي ما جال بخاطري، وقالت:

– متين، هل تعرف أن الموجود في حضني، والموجود في يدك حي، الماء والطمي غذاؤها، فسوف تشرب ماءها، وستأخذ قوتها من الطمي، وستثمر لنا برقوقًا وفراولة وباذنجانًا وطماطمًا، ثم نأكلها.

فنظرت إلى جدتى وشعرت أن الموجود فى حضنها كأنما قد دخل فمنا مثل الفلفل الأخضر والباذنجان الأرجواني والطماطم الحمراء، قالت جدتي:

– انظروا، انظروا إلى هؤلاء!

أظهرت الموجودَ في يدي، ورفعت يدي اليمنى، وقلت:

– هذه فراولة.

ورفعت يدي اليسرى، وقلت:

– هذا برقوق . . .

نظرت جدتي في عيني أختي الكبرى، وقالت:

– في جيبك بذور المقدونس أيضًا.

كانت أختي الكبرى وأمي وأبي قد نهضوا قبل قليل، وكانوا يعدون الإفطار.

سألت والدتي :

– هل ذهبتم في الصباح الباكر؟

قالت :

– هه ، ذهبنا مبكرًا ، ولكن اسألوا ، انظروا لمتين فقد اشترينا الأرخص بالاستفتاح ، بائع المقدونس فحسب هو الذى أخذ نقود العالم لبذره الذى لا يتجاوز ملء خاتم صغير . سألت أمي قائلة :

– هل سنشرب الشاي أم لا؟

شربنا أنا وجدتي الشاي كوبًا كوبًا ، وكان والدي يتفقد شتلات الشجر ، وينظر الى جذورها ، وإلى قاماتها ، وسأل :

– أيهما الفراولة؟ وأيهما البرقوق؟

وضحتهما لأبي ، فقال :

– حسنًا ، سأحضر لكم حفار الأشجار .

قالت جدتي :

– لا . . . سنحفرها أنا ومتين .

قالت أمي :

– أنتما لن تحفراها .

أمسكت جدتي بذراعي ، وقالت :

obeikandl.com

– لو نظرتم، متين قوي، فهو يحفر مجرافين، وأنا أحفر مجرافين.

ضحك والدي، وقال لأمي:

– مفهوم، لن يثمر هذا لنا لا فراولة ولا برقوقًا.

قالت جدتي:

– هـه، كأنني أستطيع أن آكـل، لـو أكلت سآكل ثلاث برقوقات وثـلاث فـراولات أيضًـا، وستأكلون أنتم البقية، ولكن نريد أنا ومتين. . .

عندما نظرت لي جدتي أتممتُ كلامها:

– نريد أنا وجدتي أن نزرع الحديقة سويًا.

قال والدي:

– حسنًا.

شربت جدتي الشاي بسرعة، ووضعت ماءً قليلاً داخل صينيتها، وثبتت شتلات الخضار داخل الصينية، وبللت جذورها.

– الأشجار يا جدتي؟

– سنزرع الأشجار اليوم.

obeikandl.com

– وشتلات الخضار؟

– نجهز الأرض التي سنزرعها أولاً .

سأل والدي قائلاً :

– الفأس والمجراف من أين ستحضرانهما؟

قالت جدتي :

– كنت قد رأيتهما ذات مرة في دكان قدري الخُضَري ، وهناك فأس مستند على الحائط ، وعندما جئت من السوق ، نظرت فلم يكن قد فتح قدري دكانه ، ولكن الآن قد فتح ، هيا لنر يا متين ، وبمجرد أن نجد الفأس نبدأ العمل ، ونزرع الفراولة والبرقوق .

تقول جدتي باستمرار :

– آه . . عندي الروماتيزم!

وتمد قدميها هنا وهناك ، وتشير إلى المكان الذي تشعر فيه بوخز خفيف في قدميها . وأحيانًا تشير الى خَصْرها ، وتضغط بأصبعها على نقطة هناك ، وكانت تقول :

– هناك تمامًا ، يضغط الملح داخلها ، كأنما يترسب .

بعد ذلك تعطيني علاجها ، وتقول :

– ادهن يا بني ، ودلِّك .

obeikandl.com

أدهنُ لها العلاج وأدلكُ، وأقول:

– تمام يا جَدَّة؟

– لا، ليس تمامًا، أشعر بوخز يؤلمني . . يؤلمني، وتقول ذلك قليلاً إلى أن أدلك، وأسأل:

– تمام؟

– دلك قليلاً، آه . . !

ولو لم يؤلمها ظهرها كان رأسها يؤلمها، وبسبب غير معلوم لا تشرب العلاج من أجل ألم رأسها قط. فمعدتها لا تحبُّ العلاج، وعندما يؤلمها رأسها تَعْصُب رأسها بإحكام بقماشة رقيقة. وعندما تكون هناك قماشة مربوطة بإحكام على رأس جدتي؛ نعرف أنها تتألم من رأسها، لا لم يؤلمها، كانت تتصدع:

– آه . . آه . . سينشق رأسى مثل البطيخة.

– هل رأسك يا جدة؟

– آي، ماذا؟ لا أعرف . . هل لدي رأس؟

– لديك يا جدتي العزيزة، اعْصِبيه.

– آي، مهما يكن الرأس هكذا، فليتك تضع الرأس على كتفك، لو لم يؤلمني.

– اشربي العلاج يا جدتي .

– منه ، هل يُشرب العلاج من ألم الرأس؟

– هل ستجذبين الكل هكذا؟

– لا ، الآن تعد أختك القهوة السادة لي ، وأشربها ويمضي الألم .

حقًا بعد أن تعد أختي القهوة السادة ، وبعد أن تشرب جدتي هذه القهوة يَمْضي ألم رأسها فجأة!

– يا إلهي ، أشعر أن العالم برأسى .

– ماذا لو شربت هذه القهوة مساءً يا جدتي ، وماذا ولو لم يخَفّ ألم رأسك لمدة يومين ، هل يكون هذا مستحيلاً أكثر؟

– وهل يخطر ببالي أيها الطفل؟ لقد جلست ووقفت يومين بدون رأس .

من يعرف ، ربما مضى ألم رأس جدتي ، وكانت تتذكر شرب القهوة ، وكانت تمسك معدتها وتقول :

– كأنما داخلها قِطَّة تتجول .

تقول أمي :

– تتألم جدتكم من معدتها اليوم؛ لأنني طبخت الطعام

obeikandl.com

الذي لا تحبه .

حقًا متى طبخت والدتي كُرَّاتًا تتألم جدتي ذلك اليوم من معدتها .

– آه . . لن تؤلمني معدتي لو كنتُ سأتناول الكرات بالملعقة وأعصر عليه الليمون الكثير .

ولم أرَ أن جدتي أكلت معنا كراتًا قط .

اليوم كانت جدتي لا تتألم بشدة ، فلا معدتها تؤلمها ، ولا رأسها ، ونزلت السلالم أسرع مني .

كان قدري الخُضَري قد فتح دكانه ، وكان يخرج خضاره خارج الدكان .

قالت جدتي :

– أعمال مُباركة .

– تسلمين يا خالة .

– هلا أعطيتني فأسك قليلاً .

– الفأس ، أىّ فأس يا حكمت هانم ؟

الفأس ، الفأس يا بني ، من أجل عزق أي مكان ، كنت قد رأيته أنا . كان موجودًا هناك .

– ماذا ستفعلين بالفأس يا خالة؟ هل ستحفرين قَاع الإصيص بالفأس؟

– يا قدري، هل يعزق قاع الزهريات بالفأس؟ سأعزق الحديقة . . الحديقة.

– أوه . . أوه . . العمارة؟

– نعم.

– هل ستزرعين زهورًا يا خالة؟

– سأزرع الخضار.

– خضار يعني باذنجانًا، فلفلاً، هل ذلك؟

– بلا شك.

– آه، حينئذٍ ماذا سأبيع أنا ياحكمت هانم؟

– يا بني عدة جذور، وستجد الإنسان الذي ستبيع له. هيا أعطني الفأس.

– لأعطينك إياه ياحكمت هانم، وسأعطيك مجرافًا أيضًا، ولكن عندما يبدأ إعطاء المحصول سوف لا تجلبونه في شكل خضار، وسوف تعطونه لي، وسأبيعه هنا، تمام؟

رفعت جدتي صوتها قليلاً:

obeikandl.com

– يا قدري، ماذا ظننتنا، هل سنزرع حقلاً، أم سنزرع الحديقة كلها من أولها لآخرها خمس عشرة شتلة؟

مد قدري الخضري الفأس والمجراف، وقال:

– يمكنك إبقاؤهما عندك يا خالة حتى تنتهي مما تفعلينه، انظري بمجرد أن تثمر الطماطم الطازجة، أريد ثلاث ثمار فقط من أجل السلطة، هل فهمتم بسرعة.. متين سآكل سلطة هنا.

قالت جدتي:

– يالك من رجل، تعيش داخل الطماطم والفلفل، وتريد منا ثلاث ثمار طماطم لعمل السلطة! يالك من مسكين!!

– سيكون لطماطمك طعم آخر يا خالة! لماذا؟ لأن حكمت هانم زرعتها و عزقتها وسقتها.

أشارت إليَّ جدتي وقالت:

– سيفعل متين كل هذا، ولدينا أيضًا شجرتان: برقوق وفراولة.

قال قدري الخضري:

– واأسفاه، وضرب يدًا بيد، لو قلتم برقوقًا وفراولة سيفسد

obeikandl.com

هنا دون أن يباع، كل واحد يسرع فى حديقة فراولة وبرقوق حكمت هانم، سامحيني يا خالة حكمت هانم.

وكانت جدتي تَضْحك.

كان مقبض الفأس رفيعًا ، والمجراف أيضًا بالنسبة إلى أصابعي. فلم أرَ فأسًا قط حتى ذلك اليوم، وكان يشبه القدوم العريض، ولكن ليس ثقيلاً مثل القدوم، وكانت تقطع الطرف مثل مجراف صغير جدًا. وكنتُ أهز الفأس في الهواء، فقالت جدتي:

– على مهلك، لا تستهلك قوتك في المكان الخالي! بعد قليل ستتعب، وضروري أن تستغل قوتك في الأرض، فإن عزق الأرض أمر صعب، ولكن يستحق التعب.

أتينا إلى حديقة منزلنا، وكان باب المدخل في الوسط تمامًا، باب المدخل من الحديد، يُفتح جانب واحد من الباب، لون الباب غير واضح، فالمطر والرياح، أضاعا الدهان جزءًا جزءًا، ولم يُدْهن قط حتى الآن، وعندما يفتح يصدر عنه صوت صفير معظم الوقت، وأي شخص كي لا يسمع هذا الصفير، كان لا يغلق باب الحديقة قط، حتى لو أن غريبًا جاء إلى العمارة واستطاع غلق الباب، وبعد ذلك فتحه شخص

قادم، كان يتركه كما هو، قالت جدتي:

– ينبغي أن يُغلق هذا الباب، ينبغي أن أقول للعم «سورايا»، ليغلق الباب، مهما فعل.

استعدت جدتي:

– الى أين أيتها الجدَّة؟

– إلى العم «سورايا».

كان العم «سورايا» رجلاً مسنًا وسمينًا، ذا عينين زرقاوين، وهو إنسان ذو وجه ضحوك باستمرار، ويحب الأطفال جدًا، ولو رأى أي طفل كان يداعب شعره ويسأله عن اسمه، وكان إذا طارت كرتنا إلى مكان عالٍ كان يصعد بسمنته هذه ويُحضرها. وذات مرة أنزل الهر الصغير الذي صعد الشجرة، وكان يحب الطيور أيضًا، ولكى تأتى الطيور كان يشتري القمح من السوق، وعندما يخرج من المنزل صباحًا، ينثر عدة حفنات على أرض الحديقة، وبعد أن ينثر القمح يتابع التقاط الطيور لحبوب الطعام. كان رجلاً ذا وجه وردي وشعر أبيض، كان يعرف أسماء كل أطفال العمارة، وفي أي صف يدرسون.

وعندما فتح الباب رآني، وقال:

obeikandi.com

– متين ؟ خير . . ماذا حدث يا متين؟

فرأى جدتي ، فقال :

– تفضلي .

قالت جدتي :

– لن ندخل إلى الداخل ؛ لأن لدينا عملاً .

– لقد أعددنا إفطارنا ، تفضلي حكمت هانم لتناول الشاي .

– لا . . لا . . تناولنا نحن إفطارنا ، أووو وذهبنا إلى السوق حينما كانت الشمس تشرق ، انظر : مجراف وفأس ، سنعزق أنا ومتين نصف الحديقة ونزرعها ، وسنغرس شجرتين ، جئنا فقط لنخبرك .

– حسن جدًا حكمت هانم ، ستتخلص الحديقة من الزبالة .

– سنزرع خضارًا وسنزرع فراولة وبرقوقًا .

– جميل جدًا ، هل أساعدكم أنا أيضًا؟ هل تحتاجون إلى مساعدتى أيضًا؟

– لا . . سنفعل ذلك بأنفسنا ، ولو كان ضروريًا سيساعدك

obeikandl.com

الأطفال يا متين. فأنا ومتين قررنا ذلك، وسنقوم بهذا العمل مع الأطفال، أليس كذلك يا متين؟

– وهو كذلك.

– ولكن «سورايا» بك قال: إن للحديقة بابًا، أي الباب الذي لا ينغلق قط صعب علينا أن نجعله ينغلق، فلنغلقه.. لأنه عندما يؤدى إلى الدخول إلى العمارة بسهولة من الشارع، وبذلك تتجول القطط والكلاب بين الزرع، وقد تفسده..

– مفهوم حكمت هانم، كنت أريد أن أدهن ذلك الباب أكثر من مرة، سوف أدهنه أنا، وسنقول لسكان العمارة أن يغلقوا باب العمارة بعد أن يدخلوا ويخرجوا.

– في حفظ الله!

– مع السلامة.

أغلق «سورايا» الباب، وقالت جدتي:

– هيا يا متين، هات الأشجار وتعال.

قلتُ لوالدتي: إننا وجدنا مِجْرافًا وفأسًا، وإننا أخبرنا العم «سورايا» أيضًا.

كانت جدتي تقيس الأرض، تقيس من حائط الحديقة إلى

حائط العمارة، ثم كانت تعدُّ من جديد إلى الباب من هناك، قائلة:

– لتصل الفراولة إلى شرفتنا، جدتي العزيزة، هل سنزرعها هناك؟

– بلا شك سنزرعها هنالك، ولكن أين نزرع البرقوق؟ لم أقرر بعد.

– البرقوق؟ نزرعه تجاهها أيضًا أسفل حائط الحديقة.

– مستحيل يا متين، ففروعها ستمتد إلى الطريق، وسيقذفها الأطفال الأشقياء والقادمون والمارة بالحجارة لإسقاطها.

ثم تتكسر فروعها.

– لو أخذناها إلى الوسط قليلاً جدتي العزيزة؟

– عندئذٍ سيكون الخضار في الظل، والخضار يريد الشمس، وعندما تكون في ظل الشجرة، لن تثمر محصولاً جيدًا.

– تعرفين كل شيء يا جدتي العزيزة.

– ألا أعرف قط؟ كانت هناك شجرة توت ضخمة وسط حديقتنا زرعها والد والدي، فلم يؤذِ والدي شجرة التوت هذه قط، ولكن كان هناك فرق بين الخيار الذي كان في ظلها،

والخيار الذي لم يكن في ظلها، لهذا ينبغي ألا يكون الشجر في حديقة الخضار، لينظر الفلفل والطماطم إلى الشمس فى اليوم كله.

وفي النهاية قررت جدتي أن تَغْرس شجرة البرقوق على بعد ثلاثة أمتار من شجرة الفراولة، وقالت:

– هل هذا جيد يا متين؟

– أنت تَعْرِفين أيتها الجدة.

وضعت قدميها على الأرض، ثم علَّمت علامة بمقبض الفأس.

– هكذا يا متين مكان البرقوق هنا بالضبط، هيا ابدأ الحفر لنرى ولأريك أنا.

ضربت الأرض بالفأس، كانت الأرض صَلْبـة جدًا، فتصدر صوت دوي، ولكن دخل طرف الفأس في الأرض مرة أخرى وأخرى وأخرى.

تووم . . .

خرج «أفق» من العمارة . .

تووم . . .

obeikandl.com

خرج «عمر» من العمارة .

تووم . . .

خرجت «سحر» من العمارة .

تووووم . . .

خرج «آرول» من العمارة .

تووووم . . .

خرجت «لالة» من العمارة .

وفي لحظة تجمع أصدقائي ، واحتشدوا حولي ، وكانوا كلهم يسألون :

– ماذا حدث؟

– ماذا ستفعلون؟

– ماذا ستزرعون؟

رفعت رأسي لهم وقلت :

– سنزرع فراولة .

صفقوا كلهم فجأة ، وسألت «لالة» :

– يعني شجرة فراولة؟

obeikandl.com

أظهرت جدتي شتلة الفراولة الموجودة بجوارها، فاتجه أصدقائي إلى ذاك الجانب، وقالوا:

– هذه؟

قال «عمر» بدهشة:

– ظننتها عصا الخالة حكمت السحرية.

قالت جدتي:

– هه، عندما تُزرع كل العصا على الأرض، وتثمر فراولة، يا إلهي كم يكون هذا جميلاً . . ولكن أنت محق فمن أين سيعرف الأطفال؟ انظروا . . هذه أيضًا شجرة، ولكن عليكم أن تنظروا لتعرفوا شجرة ماذا؟

كانت توضح جدتي هذه المرة شتلة البرقوق.

قال «أفق»:

– كوسة . . .

فضحك الأطفال كلهم، ولا سيما «آرول»، ضحكت كثيرًا، وقالت:

– يقول شجرة كوسة على شجرة البطيخ!!

هذه المرة كانت جدتي هي التي تضحك أكثر، وبدأ أصدقائي الضحك أيضًا عندما رأوا جدتي تضحك مقهقهةً،

obeikandi.com

وقالت جدتي :

– آه . . أيها الأطفال آه . . جعلتموني أضحك، هل يكون البطيخ والكوسة على الشجرة ؟ لا . . إنما يكون على الأرض، على الأرض .

وضحكت من جديد قائلة :

– لو كان البطيخ على الشجرة، فعندما يصير ضخمًا تسقط على رأس الناس، وتنشق البطيخة على رأسه قائلةً : بوووووم، فيفقد الوعي في الحال .

– لماذا . . لماذا . . انظروا لتعرفوا ما هذه الشجرة؟

قالت «سحر» :

– تفاح .

سألت جدتي :

– في الغالب تحبين التفاح كثيرًا يا سحر!

– أحبه جدًا .

– ولكنه ليس تفاحًا .

قالت «لالة» :

– كريز .

obeikandl.com

هزت جدتي رأسها بمعنى "لا".

قال «عمر»:

– مشمش.

قالت جدتي:

– آه.. اقتربت.

صاح «أفق» قائلاً:

– خوخ!

قالت جدتي:

– اقتربت أكثر.

صاحت «سحر» قائلة:

– برقوق!

هزت جدتي رأسها، فصفق الأطفال لسحر.

بعد ذلك سأل الأطفال جدتي:

– متى يثمر البرقوق؟

– يثمر قريبًا.. ماذا يثمر؟

– كيف تكون زهرته؟

obeikandl.com

وكان سؤالهم الأخير:

– هل سنأكل نحن أيضًا؟

قالت جدتي:

– بلا شك.

ضرب الأطفال أيديهم مع بعضهم البعض، وصاحوا بسرور. وفي الحال خطف «عمر» الفأس من يدي، من أين سمع؟ من أين رأى؟ هل من التلفاز؟ أم من لعب الأطفال؟

وكان كلما ضرب الفأس كان يصدر صوتًا قائلاً:

– هه، هه، هه.

كنت أنا وأصدقائي نشكل دائرة حول الحُفْرَة. وكان كلما رفع «عمر» الفأس في الهواء رفعنا أعيننا معه، وعندما يضرب الأرض قائلاً: «هه»، كنا ننزل أعيننا إلى الأرض، وكانت جدتي تفكر شاخصة بصرها إلى نقطة ما. وكانت لا ترانا قط، أعتقد أنها كانت تفكر في شبابها وقريتها وطفولتها أثناء هذا.

نظرت إلى الحفرة وأتت إليها عندما سألتها قائلاً:

– حسنًا جدتي، حسنًا؟

– كانت تقول :

– قليلاً أم تعبتم؟

– هل نحن نتعب؟

خطف «آرول» الفأس من يد «عمر» بَيْد أن «لالةَ» كانت تريده قائلة :

– ماذا يعني ، نحن بنات ، ألن تَعْزَق البنات؟

فكل البنات في القرى تعزق وتحفر الأرض ، انظر . . لمن تعطى «آرول» الفأس ، ستعطيه لي عندما تتعب .

كانت ستحدث مُشاحنة على رأس الحُفْرَة بسبب الفأس والمجراف .

– الدور عليَّ أنا .

– لا . . عليَّ أنا .

– ولكن ألم تحفر أنت قبل قليل؟

نظرت جدتي إلي الأطفال الذين اشتبكوا مع بعضهم البعض ، وقالت :

– أيها الأطفال ، افعلوا بعدد ، كل واحد يضرب بالفأس عدد مرات محددًا ، ويخرج بالمجراف .

obeikandl.com

كنا نعد معًا لو ضربت «لالة» بالفأس عشر مرات، كانت تضرب سحر بالفأس عشر مرات، ولو أخرج عمر عشرين مرة التراب بالمجراف، كان «أفق» أيضًا يُخْرج التراب بالمجراف عشرين مرة، ومن كان يستخدم المجراف قبل قليل سيستخدم الفأس بعد ذلك، وعندما يأتي الدور عليَّ كنت أخطف الفأس، ولكن كنت لا أضرب ضربة واحدة أكثر منهم، فعلى الفور يخطف أحدهم الفأس بسرعة قائلاً:

– الدور عليَّ أنا.

آه حفرنا حفرتين بسرعة؟ كأنما لم نكن نحفر حفرة، كنا نلعب لعبة حفر الحفرة، وبعد قليل سنلعب لعبة غرس الشجرة. ولكن هذه ليست لعبة بل حقيقة، فأشجارنا تقف هنالك، ولها جذر، وعلى جذورها طمي، فقد نزعت من مكان ما، ونزعت بِطَمْيِها، ولكن الآن ستتصل بالأرض بعد قليل مرة ثانية، وستشرب ماء الحياة . . .

– ماء الحياة!!

كانت تشرح جدتي بعد أن أتينا من السوق، وكانت تذكر ماء الحياة، الماء الذي يُعطي أولاً عندما نَغْرس شجرة، أو زهرة، أو خضارًا، وكان النبات يشرب هذا الماء، ويشرب،

obeikandl.com

أي أننا كنا نعطش نحن في بعض الليالي، فننهض من نومنا، ونشرب الماء كوبًا كوبًا، هكذا النبات كان يشرب أيضًا، ويعطش جدًا؛ لأن جِذْره لم يكن على التراب، وعندما يرى الأرض ثم الماء، كان لا يشبع من الماء قط.

وبعد قليل ستتصل فراولتنا الجميلة وبرقوقتنا الجميلة بالأرض والماء أيضًا، يكفي أن تنتظر أيها البرقوق قليلاً حتى يضرب «آرول» فأسه الأخير، وتخرج «لالة» مجرافها الأخير، بعد ذلك ستتصل بماء الحياة.

– تمام أيتها الجدة؟

نظرت جدتي إلى حفرة البرقوق، وأخذت الفأس، وأسدلتها داخل الحفرة، وقاست المكان المحفور بعصا الفأس، وأمسكت ذراع المقبض، وضمت شفتيها، وحنت رأسها وقالت:

– اكتملت.

وفجأة فتح الجميع أفواههم قائلين مثل الكورس:

– ألم تريدينا أن نحفر أكثر؟

– لا لا . . هذا يكفي، والآن خذوا أيها الأطفال الشتلات، وتعالوا لنرى، ولكن تحاشوا إفراغ ترابها.

خرج معظم سكان العمارة إلى الشرفات، ونزل العم «سورايا» إلى أسفل، وكانت السيدة التي تعيش في الطابق السفلي قد أطلت من نافذتها.

قالت جدتي:

– قل يا متين، أيهما نغرس أولاً؟

صاح أصدقائي:

– قل يا متين، قل يا متين!

– البرقوق . . .

قالت جدتي:

– أيها الأطفال، ليغرس متين شجرة البرقوق، وستغرسون أنتم الشجرة الأخرى، هيا تعالوا إلى جانبي لنترقب متين. . .

كانت جدتي قد نظفت وسط الحفرة جيدًا، ثم أخرجت بضع حفنات من تراب الأرض الرقيق المحفور هنالك، قائلة:

– ليسير الجذع بسهولة؛ لذا ينبغي أن يكون ناعمًا.

كانت جدتي تمسك الشجرة، وكنت أنا أضع التراب بالمجراف، وتنظر جدتي دون توقف قائلة لئلا تنغرس الشجرة

obeikandi.com

مقوسة، وكانت تسأل الأطفال:

– كيف... هل أصبح مستقيمًا أيها الأطفال؟

انسحب الأطفال للخلف، ونظروا، وكانوا يقولون:

– مستقيم صحيح.

كنت لا أعرف كم مجرافًا وضعت، ولكني لم أتعب، وكنت أضغط على الأرض بيدي، وبعد أن رفعت جانبها، سمعت صوت العم «سورايا» يقول:

– خذ يا متين ماء المحاياة، ولنر.

وكان في يده دلو مملوء بالماء.

– هل تعرفون أنتم ما معنى ماء المحاياة؟

– لا نعرف قط، هل يكون أبًا يا متين؟! أنا أيضًا غرست أشجارًا كثيرة في القرية.

حقًا كما قالت جدتي، شربت الأرض الماء، وعندما يَنزل الماء إلى الجذور فإنها تفرح، كان قد أحضر العم «سورايا» الدلو الثاني، وسكبت أنا أيضًا ذلك الدلو، ورفعت جوانبها قليلاً.

قالت جدتي:

obeikandl.com

– هيا، لنرَ أيها الأطفال، الآن نَغْرس الفراولة.

وكان كل الأطفال قد بدءوا يقولون:

– أنا . . أنا . . أنا.

قالت جدتي:

– معًا، امسكوا لنرى.

وبينما كنا نمسك كلنا الغُصْن الرقيق الخَفِيف، ضحكنا وقلنا:

– لا تصرخ . . لا تصرخ . . الرحمة.

ومن جديد وضعت جدتي ترابًا رطبًا وسط الحفرة، وأنزلت الجذر في التراب، وملأتها بالمجراف من يد ليد، وكانت تعطي المجراف الذي يقذف التراب لمن وجد جانبها، وتسأل جدتي من جديد.

– هل مقوس أم مستقيم؟

كانوا يقولون:

– مائل نحو الشارع قليلاً . . هاه، الآن أصبح تمامًا.

كان «عمر» يضع التراب بيده، وكان «آرول» يرفع جوانب الأرض المزروعة بيده، وكانت «سحر» تداعب شتلة الفراولة

obeikandi.com

كالطفل، والعم «سورايا» يصيح قائلاً:

– ماء المحاياة!

وكان الدلو ينتقل من يد ليد.

– الدور عليَّ أنا

– ولكن أنت سكبت كثيرًا . .

وكان صوت العم «سورايا» مسموعًا:

– لا تتشاجروا أيها الأطفال، سنعطي ماء المحاياة دلوين أيضًا. شربت الفراولة الماء، وستشرب أكثر، وسينمو الغصن، والأوراق، وستثمر محصولاً أحمر، وسيُقْطف أيها الأطفال هذا المحصول، وسنأكله.

– هيا بنا أيها الأطفال.

كانت «لالة» تصيح وتمسك «سحر» من يدها، وتقول:

– نُكَوِّن حلقة.

– أين؟

– ستكون حَرْب الفراولة . . .

كنا نقف وندور حول الفراولة، مغنين أغاني المدرسة . .

– استاء البرقوق أيها الأصدقاء!

obeikandl.com

على الفور كَوَّنوا حلقة حول البرقوق، هل أثرنا استياء المشمش؟

نزل أبي وأمي وأختي الكبرى، فكانت جدتي تنظر لوجوههم، كأنها تقول: «كيف كان؟»، وتدير رأسها وتنظر إلى شتلة البرقوق وشتلة الفراولة.

وكانت الشجرتان الصغيرتان قد أبهجتا سكان عمارتنا، وكان أصدقائي يتجولون إلى جانب الأشجار، كنا نظن أن هاتين الشجرتين. . . . . الطويلتين ستُصبحان شجرتين ضخمتين في المستقبل، وستثمر فاكهة لنا. ولكن كانت قد غُرِست شجرتنا. وطبقًا لما قالته جدتي سيمضي وقت طويل حتى تُعطي كلاهما أوراقًا، بعد ذلك ينبثق الغصن إلى جانبها. وذات يوم في الصباح ننظر حيث نرى جانب الشتلة الذي يرى كالغُصن الجاف قد انتفخ جانِبه. بعد ذلك بوقت قليل ستخرج أوراق خضراء صغيرة، وعندئذٍ كنا سَنُرى هذه الورقة للأصدقاء مع بعضنا البعض، وكنا سنشترك مَعًا في بُشرى الأوراق الجديدة. وربما ستتشابك أغصان الفراولة مع البرقوق والفراولة في المستقبل، وكنا سَنَمْضي من شجرة البرقوق إلى شجرة الفراولة، ومن شجرة الفراولة إلى شجرة

obeikandl.com

البرقوق، كانت جدتي تشرح وتقول:

– ربما أيضًا أيها الأطفال تَصْعدون شجرة البرقوق، وتَجْمعون الفراولة.

كنا نستمع لما تسرده كما لو كان قِصَّة رائعة، كانت أمهاتنا وآباؤنا قد صعدوا إلى شققهم، وانسحبوا من الشرفات والنوافذ. وكنا نحن نتجمع حول جدتي، وعلى الفور جلسنا أسفل الفراولة. وكانت جدتي تحدثنا عن حدائقهم الموجودة في طفولتها ناظرةً للبرقوق، والفراولة، وكانت تقول:

– كنت أُركِّب أرجوحة على شجرة الفراولة.

وكانت تشير إلى شجرة الفراولة.

– ستقيمون أنتم أيضًا أرجوحة على هذه.

وكنا نصيح كلنا نحن الأطفال:

– متى؟ متى؟

قالت جدتي:

– انتظروا . . لا يُرْكبُ على الحصان الصغير المولود جديدًا في الحال. إنما بعد أن يمضي وقت، وينمو المهر ويكبر بعد ذلك، سيُركب كذلك الشجرة أيضًا . . . ربما الآن أنتم

obeikandl.com

أطول من قامتها، ولو أتيتم مسرعين من جانبها يمكنكم القفز من على هذه الشجرة، ولكن العام القادم أو العام الذي يليه، تكون هى أعلى من أعناقكم عدة طوابق.

– عندما قالت جدتي لأصدقائي:

– سنزرع الخضار أيضًا . . وقف الأطفال كلهم، كما لو أن نحلة لسعتهم، وبدءوا فى احتضان الفأس والمجراف والشتلات، بدءوا حفر المكان الموجود بشكل عشوائي.

قالت جدتي:

– مستحيل، يُحْفَر بترتيب من هناك.

– وَضِّحِي يا خالة وضِّحي!

ومن كان يسأل يقول:

– ماذا سنزرع؟

ومنا من يصيح قائلاً:

– أعطيني الدور، الدور عليَّ أنا . . .

كان عمر قد أفلت المِجْراف، ووضعت سحر قدميها على الأرض ثم أمسكت بالمجراف، وقالت:

– سأحفر أنا هنا . .

obeikandi.com

أسكتتهم جدتي، وأخذت من أيديهم الفأس والمجراف، وقالت:

- تعالوا أيها الأطفال لننظر.

وقسمت الأرض بمقبض الفأس إلى أقسام، ثم وزعت تلك الأقسام على الأطفال، وأعطتني القسم الكبير، وقالت:

- تمام، مكان كل واحد واضح، ليَعْزق كل واحد المكان الموضح له.

آه، ولكن يوجد فأس واحد فقط، ذهب «أُفق» مسرعًا، وأتى بقَدوم، وأتت «سحر» بآلة تُشبه الفأس، وعندما أحضر العم «سورايا» قدومه أيضًا، كان قد ملأ الحديقة بصوت توك توك، ووضعت جدتي يديها على خِصْرها، وكانت تتجول بيننا وتقول:

- ستُحفر حفرة عميقة . . عميقة.

كان قد أتى أصدقاؤنا الموجودون في عمارة "أوزلم" في الجانب الآخر، ثم أتى بعد ذلك أصدقاؤنا الموجودون في العمارة المجاورة لهم، وأتى العم «سورايا»، وذهب فوجد آلة وأحْضَرها، كان اسم آلته التي وجدها «كوريكًا». إن محصول

الحديقة المعزوقة جيدًا يكون جيدًا أيضًا . وكان طرفها حادًا مثل المجراف ، وكانت هناك خَشَبة بدلاً من المِقْبَض ، وكان العم «سورايا» يغرز جانب هذا الشيء في الأرض كالمِجْراف ، ثم يحمل الخشبة الموجودة في الوسط بقدمه ، وكان يغرز المجراف داخل الأرض ، ثم عندما يخرجه يخرج كومة من التراب خارجها ، وكان يقول :

– أنا ضعيف ، لا أقدر على آلة العم «سورايا» .

وقد أطلق أصدقائى على هذه الآلة اسم جرار زراعى . . تراكتور . .

وكلما قلنا «تراكتور» على الآلة الموجودة في يد العم «سورايا» ، كان العم «سورايا » يبدأ العمل بسرعة أكثر ، هذه المرة عندما قال العم «سورايا» : بوف ، اختطفنا الآلة . وكنت أنا قد أمسكت المقبض ، وكان عمر يضغط بسرور بالغ على الخشبة الموجودة وسقط المقبض ، ولكنه لم يذهب إلى العمق الذي ذهب إليه العم «سورايا» ، ولكنه أفضل من الفأس ، وكان أصدقائي الآخرون يعملون بالفأس وبالقدوم ، وقد أخذت جدتي قدومًا في يدها .

هذا العمل انتهى بسرعة ، ويمكننا أيضًا أن نزرع الخضار

obeikandl.com

حتى المساء.

بعد أن انتهى عمل عزق الحديقة كلها، وضعت جدتي علامة على الأرض، وقالت:

- سنعمل طريقًا بالمجراف، هكذا . .

ويُطلق على كل طريق من هذه قناة، وسنَفْتح القنوات هكذا، ليذهب الماء من جانب إلى آخر، وليمكن لكل جذور الخضار الاستفادة من الماء.

عندما خطف العم «سورايا» المجراف لعمل قناة، قالت جدتي:

- لا . . لنتركه وليفعل الأطفال.

وكنا كلنا ننادي أنا والأصدقاء:

- استرح أنت يا عم «سورايا».

- فقال: أيها الأطفال، كنت أقوم بالرياضة، كم كان جميلاً يا أعزائي!

وجدنا بضع مجاريف صغيرة جدًا، ومجاريف كبيرة، وعرف كل واحد منا عمله، وكونت أنا والأصدقاء مجموعات، كل مجموعة تفعل مهامها (قناتها) بنفسه.

نظرت، كانت جدتي تنزل شتلات الباذنجان والفلفل والطماطم، التي بللتها، وكان الأصدقاء لم يروا شتلة خضار، فوضَّحتُها لهم.

انظروا، هذه طماطم، انظروا . . انظروا إلى رائحتها . . أما الفلفل والباذنجان، فليس له رائحة، ولكن أصدقائي ذهبوا إلى أن رائحة شتلة الطماطم أفضلها رائحة .

تابعنا العم «خلوص» من عمارة (أوزلم)، ثم نظرنا، كان في يد «أمل» كيس نايلون.

– «أمل»، ماذا في هذا الكيس؟

قالت:

– سماد، أعطاني إياه أبي، ربما لا يكون لديهم سماد.

كانت جدتي تفكر في السماد الذي ستضعه لجذور الخضار، ثم في الإنتاج، وعندما رأت السماد ابتهجت. وكنا قد جهزنا القناة خلال وقت وجيز، فكانت قناتان للطماطم، وواحدة للباذنجان، وأخرى للفلفل.

آه ، هل يسقط حق قَطٌّ عند جدتي العزيزة؟! فقد نظمتنا صفًا، ولكن جعلتني في المقدمة، لأني كنت قد ذهبت معها إلى السوق، وقالت:

obeikandl.com

– لا تأخذوا على خاطركم أيها الأطفال، فلولا «متين» لذهبتُ إلى السوق بمشقة.

أعطت كل واحد منا شتلة طماطم في يده، غَرَسَها بنفسه في الأرض، وغرست باذنجاننا في الأرض التي ستجوف.

– هيا لننظر يا متين، اغرس شتلة الطماطم هنا، وسُدَّ جوانبها بالتراب.

فعلت ما قالته جدتي، وكانت تطلب بأن تكون الشتلة في وضع قائم، أو أن نضغط على قاعها بالتراب، وألا نحشرها، وأن نترك جزء حجر في العمق.

– كيف جدتي؟

– جميل جدًا! هيا لنرى الآن . . الدور على «لالة» . . .

– قبعت «لالـة»، وكانت الشتلة الموجودة في يدها أكثر الشتلات أوراقًا عن الآخرين، وبينما تغرس قالت:

– انظروا . . انظروا . . ستكون طميًا، طميًا أضخم من شتلاتكم.

تضع سمادًا قليلاً في الحفرة، وتضع «لالة» التراب على جوانبها وتضغط. الدور الآن على «أفق».

زرع «أفق» شتلته، ولم يطق العم «سورايا» صبرًا، وكان يصيح من الجانب الآخر:

– يعني أنا لن أزرع شتلة إلى الآن، يا حكمت هانم؟

– ستزرع . . ستزرع ، انتظر حتى يَزْرع الأطفال . . .

لم يكن أحد قط يفكر في طعام الظهيرة، وكانت أمهاتنا تنادي من الشرفات ومن النوافذ، ولم نطق صبرًا على إلحاحهن، فكنا نجري إلى منازلنا، ونأكل بعض لُقَيْمات، ونعود ثانية إلى الحديقة.

غرس العم «سُورايا» شتلة الطماطم الأخيرة، وهذه المرة كنا نبدأ الصف أمام قناة الفلفل، وكأن جدتي معلمتنا، فكانت تعلمنا كيف نغرس شتلات الخضار، وكنا نَسْمع لها كما نَسْمع لمعلمتنا، وكنا نغرس الشتلات.

ياه . . انتهى غرس شتلات الفلفل بسرعة! كأننا لم ننهض، ولم ننحنِ قط، ولم نجثُ على بداية الحفرة. نظرنا، وكانت شتلات الفلفل تصطف صفًا واحدًا، وكانت شديدة الخضرة في لون الفلفل الطازج.

وغرست جدتي آخر الباذنجان.

التصفيق . . .

obeikandl.com

لا أعرف، هل هذا التصفيق لجدتي أم للصفيحة التى تحتوى على زهور البيجونيا التي أحضرها العم خلوصي ؟!

قال العم خلوص :

هذه الصفيحة بها ورد بيجونيس من الناحية الأخرى، جميل جدًا. ولهذا أعطني قدومًا حتى أُقطِّع الصفيحة، لأغرسها فى الأرض، ولكن أين أغرسها؟

كان القرار لجدتي طبقًا لكونها مهندسة حديقتنا، فبدأت تُلَعِّب حاجبها، وتحرك شفتيها مثلما تُتَمْتم، يبدو أنها كانت تبحث عن مكان تغرس فيه صفيحة زهور البيجونيا، وفي النهاية قررت.. ستفصلها جذرًا جذرًا عن الصفيحة، وستزرعها في الفراغ الموجود بين شجرة البرقوق وشجرة الفراولة.

وكانت عائلة العم «فَخْري» التي تسكن الطابق الذي يعلونا لديهم نبات متسلق يتفتق زَهْره، كان وردىَّ اللون، وصغيرًا جدًا، وكانت تتفتح عليه وردة يُطلق عليها «الورقة». وظلت مُكْتَظة داخل صفيحة في ركن الغرفة في المنزل حتى الآن، كانت الزهرة على وشك أن تُخْرِج جذرًا، إلى خارج الصفيحة.

ولكن كانت لا تستطيع ثقب الصفيحة، كانت عائلة فخري بك تصيح من أعلى:

– حكمت هانم، هل أحضرت لك زهرة متفتقة؟

– رفعت جدتي رأسها، وضحكت ولوحت بيدها.

بعد قليل نَزَل العم «فخري» وهو يمزح، كما لو كان يحتضن جوال بطاطس ضخمًا. وعندما نزل لأسفل كانت جدتي قد قررت أين ستغرس الزهرة. كانت ستغرسها أسفل الحائط بجوار باب الحديقة.

قال العم «فخري»:

– حسن جدًا، هكذا تنمو هذه الزهرة، وتكسو الباب؛ لذا علينا أن نضع حديدًا على الباب لتلتف عليه الزهرة.

قال العم «سورايا»:

– لنفعل.

كانت قد تعودت أذرعنا على هذا العمل، وبدأنا معًا مكان الزهرة، فعزقنا بالمجراف، وأعددنا مكانًا مناسبًا للزهرة خلال عشر دقائق، وشطر العم «خلوص» الصفيحة بالقدوم، ودفنا نحن جذر الزهرة في التراب.

obeikandl.com

وفي المساء كانت الحديقة قد امتلأت بالنباتات الخضراء التي غَلَّفتها، وكانت قبل ذلك مملوءة بأجزاء الورق والزبالة. والآن مملوءة بالخضار الأخضر ومنظمة بأكملها، ولدينا شَجرة برقوق وشجرة فراولة . . وبينهما تتفتح أزهار وردية اللون، ولدينا زهرة متفتقة على جانب باب الحديقة التي تُرحب بمن سيدخل العمارة برائحتها ولونها، وستصبح هذه الأزهار العام القادم آلافًا، ومن سيدخل منزلنا ستُرَحب به آلاف الأزهار. وستُغَلِّف الحديد الموجود على الباب مكونة إكليلاً من الأزهار.

لم نترك حديقتنا منذ ذلك اليوم، ولم نعد نلعب الكرة ولا لعبة القفز على الأرض الخالية، كأننا لو ابتعدنا عن شتلات الخضار، وابتعدنا عن جوار الفراولة والبرقوق، كانت ستهجرنا كما أتت، وكأنما أزهار الجيتريك تُرحب بنا كلما ذهبنا إليها، فكنا نتحدث، وكنا نضحك، ولكن أعيننا كانت على أزهارنا وعلى أشجارنا وخضارنا الذي كنا زرعناه.

وكيف كنا نسعى لإعطائها كلها ماء الحياة، فكنا نختطف الدلاء من منازلنا، ونحملها دلوًا دلوًا دون تخاذل أو تعب، وكانت الأزهار والخضار كلما شربت الماء ازدادت حيويةً

obeikandl.com

ونضارة، وكنا نأتي بدلائنا ونملؤها مرة بعد مرة.

وإذا ما ترنحت شتلة الطماطم والفلفل بنسيم خفيف، وإذا ما اهتزت شجرة الفراولة وداعبت البرقوق، كنا نصيح معًا قائلين:

- انظروا . . انظروا . . إنهم يشكروننا.

وكانت جدتي أيضًا معنا، ولم تأكل طعام الغداء في ذلك اليوم، فكانت تقول:

- يا إلهي، أنا مُسِنَّة، لو أكلت ماذا سيحدث، ولو لم آكل ماذا سيحدث؟ وكانت جدتي مثل الطفل الذي يكبرنا في السن ببضع سنوات، فكانت تزداد حيوية معنا، وتنهض واقفة معنا، وتجلس معنا.

تلك الليلة رأيت كل خضارنا في رؤياى، رأيت زهرتنا، رأيت الفراولة ضخمة جدًا، ورأيت البرقوق، مَزْرعة خضراوات. وكانت جدتي لا تبقى فى المنزل طويلًا، فقد أخذت إلى جوارها كراسيها، وبعض فُرشها؛ لأن الطقس كان مناسبًا، وكانت تزرع الحديقة، وكانت تنظف الأرض من الأعشاب الضارة.

obeikandl.com

وعندما ذهبت إلى المدرسة وأتيت، كانت تعمل بجد ونشاط عجيب.

– ماذا زرعتِ هنا جدتي؟

– انظر، لترى!

– وكانت جدتي تبشرنا أنا وأصدقائي.

– أسرع «أفق» . . أسرعت «سحر» . . وأدركتنا «لالة» . . انظروا ما هذا؟ من أين سنعرف؟ فكانت جدتي تجعلنا نُخَمِّن، ومهما قلنا، كانت تقول:

– لا، لا يمكنكم أن تعرفوا . . .

كانت تعرف ما تبذره، وأين تزرعه جيدًا . . .

– هل تعرفون ما هذا، فاصوليا . . .

كنا نصيح:

– نعم فاصوليا . . ستكون فاصوليا طازجة، وستمتد هكذا.

– متى اشتريت هذه الشتلة يا جدتي؟

كانت تضحك جدتي:

– يا إلهي، هل تكون الفاصوليا شتلات، حسنًا . . سنزرع

obeikandl.com

فاصوليا جافة .

– هل الفاصوليا التي نأكلها جافة؟

– بلا شك . . هل تعرفون ما هذه أيضًا؟ الحُمُّص الجاف الذي نأكله .

– آاااااه !

قال «عمر» بدهشة :

– خالتى ، هل هذه التي تُباع على أرض السوق ، تلك البذور الطازجة ، شديدة الخضرة ، هل هذا منها؟

– نعم منها .

– أنا أحبها جدًا يا جدتي العزيزة . . آه لو زرعنا منها الكثير !!

– لا تكن شغوفًا ، فهذا يكفيكم ، كذلك !

كانت جدتي تُظهر لنا نباتًا أخضر صغيرًا جدًا .

– انظروا لتعرفوا ما هذا؟ انظروا سأعطيكم مفتاح اللغز ، يؤكل مسلوقًا أو مشويًا على النار ، لم تكن تخطر ببالنا قط ، قلنا جميعًا فجأة صائحين :

– بطاطس .

obeikandl.com

– لا . . لن تعرفوها . . ذرة.

كنا نصيح بشدة، وكانت جدتي تدفن في التراب أربعين بذرة جافة، سيكون أربعون جذرًا من أربعين وحدة ذرة، من يعرف كم ستكون وحدة ذرة طازجة على أربعين جذرًا؟

وكانت جدتي قد عَزَقَت حتى عرقت.

– أيها الأطفال، منذ كم عام لم تكن هناك زهرة في حديقتنا، والآن أصبح بها أزهار عديدة.

وعندما نلمس قصور المرجان، كانت تنبعث رائحة مثل المسك تملأ الحديقة كلها. وكانت أزهار الثالوث بألوانها الوردية والأرجوانية والصفراء تنظر إلينا مثل عينين مستاءتين، وبمجرد أن يشرب الريحان، ودون أن يلمسه أحد، كانت تنبعث منه رائحة جميلة. وزرعت جدتي نباتًا متسلقًا من منطقة إلى أخرى على حائط مجاور، وكانت قد بدأت أوراق اللبلاب المتسلق التسلق لأعلى. وكان العم «سورايا» قد أصلح باب الحديقة الحديدي، ودهنه وأقام عليه مَفَاصِل قائلاً: لتخرج زهرة جيتريك.

وكان سكان العمارة لا يذهبون إلى شقتهم بسرعة، بل كانوا يلجون من باب العمارة الحديدي، وبعد أن يدخلوا

يتتبعون هذا الجانب من الحديقة فترة، ثم الجانب الآخر فترة، بعد ذلك يصعدون على سلالم العمارة.

وكان بعضهم يذهب إلى جانب الريحان، ويَلْمِسه بيده ويشمه، وبعضهم يمسك زَهْرة، ويقربها من أنفه.

كان والدي يتابع زهرة الثالوث أكثر، وكانت أمي تحب البابونيا، وكانت أختي الكبرى تنزل مع جدتي أحيانًا وتساعدها.

كان قد وقف الخضار على البرعم، وكان المقدونس صار حقلاً أخضر صغيرًا. كنت أنا وجدتي وأصدقائي نعد كم زهرة في أي شتلة دون توقف، كما كنا نعد الأوراق الأولى للبرقوق والفراولة.

– هذه الطماطم بها ستة براعم.

– هنا أكثر . . . لأنظر، نعم ٩ وحدات، ستُثمر تسع حبات طماطم.

وكانت جدتي ترد بقولها:

– يعطي أكثر . . قفوا لننظر إلى الأزهار الأولى، سيأتي خلفها . . .

– لا توجد أزهار.

كانت الطماطم التي رأيناها في الأول في حجم البندق، وصغيرة جدًا، وكانت مختبأة بين الأفرع والأوارق، كأنما تريد ألا تظهر لنا، وتخاف من أن نقطفها. آه.. آه.. ألن نقطفها قط؟ ستقفين هنا، وستكونين حمراء، وستنضجين بعد ذلك...

انحنينا أنا والأطفال واحدًا واحدًا نتابع الطماطم الموجودة في حجم البندق، وكانت جدتي أيضًا تعطي بشائر الفلفل الأولى والباذنجان الأول أيضًا، .. لا أعرف شكل الباذنجان الصغير قط، ولكن كان ظاهرًا كأنه داخل قشرة خضراء، وكلما مر يوم كانت رقبتها الخضراء تتحول للون الأرجواني...

والفلفل مدبب صغير جدًا وأخضر، فهو رفيع في طول القلم الرصاص.

لكن لن ننسى تلك الأيام التى عشناها بدون ماء قط؟!

فقد انقطع ماؤنا، لم يأتِ شيء من الحنفيات سوى صوت هواء، وفي تلك الحرارة الجافة كنا ننتظر الماء بفارغ الصبر..

ثلاثة أيام...

أربعة أيام...

ولم تنم جدتي في الصباح، وكانت تنظر، ولم يأتِ الماء، كانت ستوقظني، وسوف أوقظ أنا أيضًا «أفق» و«عمر» و«سحر»، وكنا سننقل الماء إلى شتلات الخضار الواقفة وإلى الفاكهة، وإلى أزهارنا دفعًا.

وكنت أسمع صوت جدتي يقول لي:

– انهض يا متين، لم يأت الماء.

فكنت أستيقظ، وأستمع، فلم يكن يصدر من العمارة صوت قط. وفي اليوم الخامس ذهب آباؤنا إلى المختصين، وقالوا:

– ليس لدينا ماء، فلا يمكننا الغسيل ولا الاستحمام.

عادوا وأتوا:

– توصلوا إلى العطل، وعندما يتم إصلاحه سيأتي الماء!

كانت جدتي تضرب على ركبتيها:

– ماذا سيحدث لأعزائى الصغار.

كانت تقصد جدتي بأعزائى الصغار الأزهار والخضار.

فشتلات الفاكهة كانت تتحمل العطش قليلاً. ولكن شتلات الخضار والأزهار لا يمكنها تحمل العطش، فكانت

obeikandl.com

تَصْفَر وتذبل بسرعة ، فقد كانت روحها الماء .

ومضى يوم آخر . . ولا يوجد ماء!

حقًا ، فقد أحنت شتلات الخضار أعناقها ، وكانت تنكمش ، كما تراخت الأوراق ، وكانت الطماطم والفلفل والباذنجان الموجود عليها على قيد الحياة ، ولكن جدتي قالت :

– بعد يومين سيبدأ الاصفرار والسواد .

كانت النباتات المتسلقة قد نَحِفت كما لو كانت على خيط ، والأزهار البنفسجية بدأت فى الاصفرار .

كنا نأخذ ماء الشرب من الزجاجات التي أتت للحي لِنُسَكِّن العطش . ولكن لم نسكب ماء الشرب لأزهارنا وخضارنا .

وكانت جدتي لا تقول شيئًا سوى قولها :

– أيها الأطفال ، أيها الأطفال لتجدوا الماء أيها الأطفال ، لو لم تجدوا الماء سيذهب جهدنا هباءً ، آه سنندم آه . سيحرق ويصير لا شيئًا!

وذات يوم أيقظتني جدتي في الصباح وهي تبكي ، وتقول :

– قضيت الليل ذهابًا وإيابًا إلى الحنفية حتى الصباح ،

obeikandl.com

وانتظرت صوت الماء، وانتظرت أملاً . . لا يوجد، قلت لك يا متين لا يوجد.

وعندما نزلت إلى أسفل رأيت «أفق» وسط الحديقة، كان ينظر إلى الخضار، وبعد قليل أتى «عمر» و«آرول»، و«لالة».

فقلت:

– ماذا سنفعل أيها الأصدقاء؟ جدتي تبكي دون توقف!

قالت «لالة»:

– لا يكون بالبكاء، ليكن هناك أمل.

قال «عمر»:

– بلا شك. .

قال «آرول»:

– أيها الأصدقاء، لدينا بَرْميل في منزلنا، سأربطه على ظهر دراجتي.

– آه، تسلمون أيها الأطفال، فهذا الماء يكفيهم ثلاثة أيام، لو لم يأتِ خلال ثلاثة أيام . . .

obeikandl.com

صحنا كلنا في نفس واحد:

– نخطف أوعيتنا من جديد، ونذهب إلى الماء.

وهل ننسى اليوم الذي قطفنا فيه الفلفل والطماطم الأولى، واليوم الذي اقتلعنا فيه البصل من القاع واحدة واحدة؟

كنا قد جلبنا صينية ضخمة، وبعد أن غسلنا البصل الذي جمعناه قطفناه داخلها، وكنا قد قطفنا طماطمًا حمراء، وفلفلاً طازجًا . . . وقطعناها كلها داخل الصينية، وقطفنا المقدونس، ونثرناه عليها، وأضفنا ملحًا، وسكبنا زيت زيتون عليها، وعصرنا عليها ليمونة . . . وأدخلت جدتي شوكتين داخل السلطة وقالت:

– أيها الأطفال، امزجوها بدلاً مني، كانت سلطة جميلة وممتزجة جدًا . . . .

وكانت الأشواك والملاعق والخبز في أيدينا . . .

يا إلهي، هل يمكننا قط نسيان طعم هذه السلطة؟ وسط الحديقة تمامًا، وإلى جانبنا الأزهار والرياحين وأزهار الثالوث، بينما تغمز لنا صفائح البابونيا وتضحك، كنا نأكل سلطتنا معًا أنا وأصدقائي.

حتى جدتي أيضًا قالت :

– وصلت إلى هذه السن أيها الأطفال ، ولم أكن قد أكلت مثل هذه السلطة اللذيذة .

نأكل شتلات الخس التى زرعتها جدتي من أجل كل طفل؟ . .

يا إلهي . . .

كل شخص كان يعرف خسته ، وكانت شتلات الخس الصغيرة ذات الوريقات الثلاث تنمو بسرعة . . . تقف جدتي وتقول :

– سيصير بدينًا .

كان الأطفال يقبعون على رأس خسِّهم ، وكنت أنا وهم نصيح قائلين :

– يصير بدينًا . . يصير بدينًا .

وبينما كنا نصيح هكذا ، تذكرنا كل الأعمام الغرباء . فهناك حنفية في شارع ماجد صديقي في الدراسة ، يمكننا أن نأتى بالماء إلى هنا ، ولكنه بعيد ، ليكن . . .

obeikandl.com

قالت «لالة»:

– لو كان هناك برميل آخر، أخذت أنا دراجتي الصغيرة، ولأنها صغيرة لن يركب البرميل عليها، ولكن سأحضره جرًا.

أحضرت البرميل إلى لالة من منزلنا، وأحضرت الخيط أيضًا.

ووضعت سحر وعاء ألمونيوم ذا غطاء داخل عربة الطفل القديمة الخاصة بأخيها.

لم يكن عندي دراجة، وكان عندنا عربة تَسَوُّق، فوضعت داخلها برميلاً ضخمًا، ومن ليس لديهم عربات تَسَوُّق أخذوا وعاءً صغيرًا في أيديهم، وأخذوا واحدًا.

– اذهب أنت يا آرول في الأمام . . .

عبرنا الشارع أنا والأطفال الآخرون، وكان «آرول» بدراجته في الأمام، ونحن خلفه. ومررنا ببدايات أطرافه، حتى وصلنا إلى الحنفية التي ذكرها آرول. وكان هناك ازدحام شديد عند بداية الحنفية، ولكننا دخلنا الطابور، وانتظرنا . . . ملأ «آرول» وملأت «لالة» . . . وملأنا كلنا ماءنا.

obeikandl.com

آه كنا سعداء جدًا، وضحكنا مقهقهين، وكنا أحيانًا نرش بعضنا البعض بالماء، وجئنا إلى حديقتنا راشين الماء على وجوهنا، عندئذٍ كانت بَهْجة جدتي، وصببنا الماء للأشجار والأزهار والخضار. . .

– هيا بنا أيها الأصدقاء! . .

هذه المرة . . . ذهبنا في ذلك اليوم أربع مرات إلى تلك الحنفية، ودخلنا في الطابور، وملأنا وأتينا وصببنا لنباتاتنا.

وصار أسرع إلى حدٍّ ما، وخلال بضع ساعات عادت الروح لأوراق النباتات المتسقلة التي شربت الماء، وفي لحظة انتصبت أوراق الطماطم والفلفل والباذنجان الساقطة على الأرض، وارتفعت رءوس الأزهار المنكسرة، وانشق البابونيا من الوسط، وأصبح ورديًا، وانبعثت رائحة الريحان. ولوحت لنا الفراولة والبرقوق يهز غصنها الرقيق جدًا، وذات يوم قالت جدتي:

– تمام، قد صار بدينًا بشكل جيد . . .

وكل طفل قطع خَسَّته بنفسه فى ذلك اليوم، وأخذها ونقلها إلى منزله. . وكنا نصيح – كل واحد منا على حدة– قائلين:

– الخس الخاص بي بدين جدًا .

ولكن كان أبدنها الخاص بجدتي .

الآن أتى الشتاء . . .

فلا أزهار أرجوانية ولا نباتات متسلقة ، وكان المطر في الماء كغبار الرياحين الأصفر ، وصارت الجذور سوداء ، وكانت زهرة اللبلاب الموجودة على باب الحديقة صفراء وليست وردية اللون . . وكأنما صار شجرة فراولتنا وبرقوقنا ، غُصْنا شوك .

ولكن سيأتي الربيع من جديد . . وفي هذه المرة سنزرع أشجارًا أكثر ، فآرول يحب المشمش ، فسنزرع مشمش ، وعائلة «عمر» كانت قد رحلت وأتى مكانهم عائلة «بالين» ، و«بالين» يحب الخوخ جدًا ؛ لذا سنزرع خوخًا .

تقول جدتي :

– أنا أحب التوت الأسود جدًا ، فعندما سيأتي الربيع سأبذل قصارى جهدى لأجد شتلة توت أسود ، وسأزرعها .

وكانت جدتي تواصل كلامها بشغف وتقول :

– غير واضح يا متين ، ربما ستثمر البرقوقة هذا العام ،

obeikandl.com

ولكن هل لكل طفل واحدة؟

آه . . لو تثمر . . .

أنا أحب البرقوق كثيرًا . . ولا سيما لو كان البرقوق الذي غرسته بنفسي . . . لتكن واحدة، لتسقط واحدة واحدة لكل واحد منا . . آخذ أنا واحدة لذيذة لي . . لي أنا، حيث أقضمها إربًا إربًا وآكل . . .

obeikandl.com